الدكتور
حسين يوسف دويدار

المسلمون المدجنون في الأندلس

كتب
هيثم الجبيري

المسلمون المنصرون في الأندلس

تأليف
الدكتور
حسين يوسف دويدار
أستاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة
كلية اللغة العربية — جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفون : ٥١٠٦٧٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم يكن الوجود الإسلامى فى شبه جزيرة ايبيريا (الأندلس)(١) مجرد موجة عابرة طافت بها ثم انحسرت عنها سريعا ، وإنما كان حركة قوية فعالة استطاعت تكوين دولة امتدت ـ عبر فترات تراوحت بين القوة والضعف ـ نحو ثمانية قرون من الزمان ، وادت إلى قيام حضارة زاخرة نهلت منها أوربا فى العصور الوسطى ، ولا زالت بعض آثارها وشواهدها باقية إلى يومنا هذا تشهد بما كانت عليه من تقدم وازدهار .

---

(١) الأندلس : يذهب الكثيرون إلى ان هذه التسمية مشتقة من كلمة الوندال ويعتقد بانها تحوير لكلمة Vandalusia (فنداليسيا) نسبة إلى غزاة هذه البلاد من قبائل الوندال Vandals الجرمانية البرابرة ، ولما غزاها القوط الغربيون ـ وهم من جنس القبائل الجرمانية ـ فى اوائل القرن السادس الميلادى طردوا منها الوندال ، وظل هذا الآسم سائدا حتى كان الفتح الإسلامى لها فعرب . وكانت الأندلس تعرف قبل ذلك ايضا باسم ابارية (أيبيريا) التى تضم فى الوقت الحالى دولتى أسبانيا والبرتغال ، وذلك نسبة إلى الأيبيريين الذين كانوا من أقدم سكان هذه البلاد .

. . . .

وبعد استيلاء الرومان عليها فى أوائل القرن الثانى الميلادى (سنة ١٣٣ م) أطلقوا عليها اسم اسبانيا (شاطىء الأرانب) وهو اسم فينيقى أطلقه الفينيقيون على الشاطىء الجنوبى لهذه البلاد عندما نزلوا فيه نظرا لكثرة الأرانب التى شاهدوها فيه ، ثم عممه الرومان على كل البلاد ، ثم لما خضعت هذه البلاد للوندال نسبت إليهم حتى تم تعريب الاسم إلى الأندلس بعد الفتح الإسلامى .

(انظر : د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣ — ٦ ، د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس ص ٩ — ١٠ ، د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣٧) ، وقد ذكر ابن الأثير وابن خلدون والمقرى : ان اول من سكن هذه البلاد قوم عرفوا باسم الأندلش بالشين المعجمة فسمى البلد بهم ثم عرب بعد ذلك بسين مهملة ، وأن النصارى يسمونها اشبانية باسم رجل صلب فيها يسمى اشبانس ، أو باسم ملك فيها كان يسمى اشبان ابن طيطس وقيل : بل سميت باسم أندلس بن يافث بن نوح وكان اول من سكنها وعمرها . وذكر الحميرى : ان اسم الاندلس فى اللغة اليونانية اشبانيا ، وقيل اسمها فى القديم ابارية ثم سميت باطقة ، ثم اشبانية من اسم رجل ملكها فى القديم كان اسمه اشبان ابن طيطش ، أو نسبه لرجل صلب فيها يسمى اشبانس إلى غير ذلك .

(انظر : الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ، العبر ج ٢ ص ٢٣٥ نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠ ، الروض المعطار ص ٣٢ — ٣٤) .

. . . .

غير أن كلمة الأندلس فى المداول الجغرافى الحديث تطلق على الجزء الجنوبى فقط من أسبانيا ، ويشمل الولاية الجنوبية من أسبانيا الواقعة بين الوادى الكبير والبحر المتوسط من ناحية وبين ولاية مرسية واشبيلية من ناحية اخرى ، وتحتوى على عدة مدن وقرى لا زالت تحمل اسماءها العربية إلى الآن — بعد التحريف — مثل مالقه المرية — غرناطة — قرطبة الخ . ويطلق عليها الآن اسم اندلوسيا Andalucia او الاندلس الصغرى ، وما تزال هذه الولاية تحتل فى التقسيم الإدارى لأسبانيا الحالية نفس هذه المنطقة (انظر ابو عبيدة الخزرجى : بين الإسلام والمسيحية ص ٧ — ٨ هامش ٢ ، عنان : اندلسيات ص ١٥٤ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٩) ، د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣٧) .

هذا بينما ذهب بعض المستشرقين إلى ان اسم الأندلس لم يأت من كلمة الوندال ، وإنما اشتق من كلمة اطلانطيكوس (الجزيرة المفقودة) ، وكل الأساطير المنسوبة إلى هذه الجزيرة فى المصادر اليونانية تذهب إلى انها كانت تقع فى منطقة قريبة من جبل طارق ؛ ولكن هذا الرأى بعيد جدا ولا يستند إلى حقائق تاريخية أو جغرافية مما يجعله اشبه بالأساطير التى نسبت لهذه الجزيرة المفقودة . (انظر : أوراق أندلسية ص ١٥٩) .

وبغض النظر عن اشتقاق كلمة الأندلس فإن هذا الاسم يحمل معنى ثقافيا وحضاريا وتاريخيا أكثر من كونه يرتبط بمفهوم أو اشتقاق لغوى . فهو يطلق على كل المناطق التى امتد إليها تأثير

وإذا كانت الأندلس — بالمدلول الجغرافى — تتراءى لنا اليوم من خلال حجب التاريخ وكأنها الفردوس المفقود ، فإنها بالمدلول الحضارى نسيج حى فى جسم العالم الإسلامى بما أمدته من تراث عظيم . ثم إنها من ناحية أخرى كانت ولا تزال معبرا وحلقة اتصال بين الشرق الإسلامى ، والغرب المسيحى مما جعلها منارا عظيما ، ومركز إشعاع حضارى انطلقت منه أشعة العلم والثقافة والحضارة الإسلامية إلى أوربا فى العصور المظلمة .

ولا يمكننا أن نتصور التأثير الإسلامى فى أسبانيا إبان العصور الوسطى إلا بمعرفة الدور الذى قامت به الجماعات الإسلامية فى البيئات المسيحية ، فقد مثلت صورة حية للإسلام ودولته بنظمها وتقاليدها وعاداتها وآدابها ، وكان تاريخ هذه الجماعات يمثل تاريخ الإسلام الذى ذهب سلطانه السياسى والعسكرى وبقى أثره الروحى فى النفوس لم يمحه تطاول القرون ولا تعاقب الأجيال .

ومن هذه الجماعات الإسلامية (المدجنون) Losmudejares الذين أخذوا فى الظهور عندما اشتدت حركة الغزو المسيحى للمسلمين فى الأندلس — أو حركة الاستردادا أو الاسترجاع أو الاستعادة كما يسميها المسيحيون Lareconquista (الريكونكستا) — وبدأ نفوذ المسلمين

الإسلام فى شبه جزيرة ايبيريا سواء فى الجنوب أو الشمال الشرقى أو الغرب ، أى سائر شبه الجزيرة ما عدا ركنها الشمالى الغربى الذى قامت فيه مملكة غاليسيا أو جليقية أول مملكة مسيحية فى اسبانيا قاومت المسلمين .

فى التقلص من مكان إلى آخر حتى سقط آخر معقل لهم فى غرناطـــة سنة ١٤٩٢ م فكثرت منذ ذلك الحين جماعات المسلمين الذين عاشوا تحت سيطرة الاســبان المسيحيين(٢) .

حــركة الاســترداد :

ولقــد بدات هــذه الحركة فى الواقع مــع سقوط الخلافة الأموية وقيام دول الطوائف فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ويعتبر المؤرخون الاسبان معركة كوفا دونجا سنة ٧١٨ م التى أوقف فيهــا الزعيم الأشتورى (بلاو) — الذى التفت حـــوله الجماعات المسيحية فى المناطــق الشمالية الغربية التى لم يفتحها المسلمون — تقــدم جيوش المسلمين هى البداية الحقيقية لحركة الاسترداد .

ولو ان المسلمين قــد واصلوا زحفهم على الشمال الغربى من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وسيطروا عليها كلها ، وحطموا آخر بقــايا النفــوذ المسيحى فى منطقة الجبال الشمالية ، لــكان قــد تغير وجــه اسبانيا تغيرا تاما ، ولبقيت فى عــداد دول الإسلام إلى اليوم ، ولكنهم اكتفوا

---

(٢) كان يطلق على هؤلاء المسلمين اسم (المعاهــدون ، أو المعاقــدون أو الداخلة) . إلا أن اللفظ الذى شاع إطلاقــه عليهم هــو المدجنون من دجــن بالمكان إذا اقام فيه . وقــد شاع هــذا الاسم منذ ازداد عــدد المسلمين الذين اضطروا للدخول فى طاعــة الأسبان بعــد الاستيلاء على قواعــدهم وبلادهم منذ أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) (انظر : د. لطفى عبد البديع : الإســلام فى اسبانيا ص ١٦٥) عنان : نهاية الأندلس ص ٥٦ ، كناسة الدكان ص ١٧ ، مجلة عالم الفكر مجلد ١٢ عدد ٢ ص ٧ ، عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ١٥ — ١٦ ، د. صــلاح فضل : ملحمــة المغــازى الموريسكية ص ١٢ — ١٣) .

بالمناطق الشاسعة الغنية التى فتحوها وخضعت لهم فأغرتهم بالاستقرار ، وعـدم التقـدم نحو المناطق الجبلية الوعرة شـديدة البرودة التى لجأت إليها الجماعات المسيحية المناهضة للمسلمين ، والتى استطاعت فى غفلة من المسلمين — نتيجة انشغالهم بالتنافس على الملك والرئاسة والتنازع فيما بينهم — أن تكون أول مملكة مسيحية فى القرن الثامن الميلادي وهى مملكة جليقية التى كانت أساس القـوى التى وقفت ضـد المسلمين ، ثم تكونت مملكة ثانية إلى الشرق منها وهى مملكة (نافار) أو نباره فى القرن التاسـع الميلادى ، ثم ما لبثت أن تكونت مملكتان أخريان فى القرن العاشر وها : قشتالة وارغون أو أراجون وبذلك أصبحت هـذه الممالك المسيحية تشكل قوسا حـول المسلمين فى الأندلس من الشمال والغرب بالإضـافة إلى جيوش الفرنجة التى كانت تواجههم من الشرق ممـا جعلهم بين فكى الكماشة كما يقـال . وهكذا أصبحت قـوى الأعـداء تحيط بالمسلمين من كل جانب ، وتنتهز كل فرصـة لزحف عليهم وخاصة عندما يدب الشقاق والنزاع من أجـل الملك ، وكانت هـذه الممالك المسيحية تتناسى سريعا ما يحـدث بينها من شقاق ونزاع أحيـانا فى سبيل هـدفها المشترك وهـو القضاء على دولة المسلمين فى الأندلس(٣) .

وقـد عاق الزعماء المسيحين فى أول الأمر المنازعات التى كانت قائمة بينهم ، إلا أن حركة الاسترداد سرعان ما وجـدت أعظم مشجع لها فى ذلك الاتحاد الذى تم بين مملكتى قشتالة وليـون سنة ١٢٣٠ م بحيث لم يكد ينتصف القرن الثالث عشر الميلادى حتى كانت هـذه الحركة قـد نجحت

---

(٣) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٧٩ — ٨٠ ، عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٤٠ .

فى الاستيلاء على معظم قواعد ومدن الأندلس باستثناء الأندلس الصغرى (غرناطة) التى استطاعت العيش والصمود مدة قرنين ونصف من الزمان قبل أن تسقط فى يد الأسبان سنة ١٤٩٢ م(٤) .

وبعد سقوط قواعد ومدن المسلمين فى الأندلس واحدة إثر الأخرى فى يد الاسبان أصبح الكثير من المسلمين رعايا للمسيحيين — بعد أن كانوا حكاما لهم — عليهم دفع الجزية والضرائب والخضوع للحكم الاسبانى المسيحى ، ورفض معظمهم ذلك واخذوا يهاجرون إلى بلاد المغرب وإلى مملكة غرناطة آخر معقل للمسلمين فى الأندلس قبل سقوطها مفضلين ذلك على الإقامة والخضوع لسيطرة الأسبان المسيحين ، وكان منهم أسرات اندلسية عريقة لجأت إلى المناطق الجنوبية والمدن الساحلية وبلاد المغرب العربى .

أما المسلمون الذين بقوا فى اماكنهم التى سيطر عليها الأسبان ، فقد كان ذلك بسبب ضعفهم أو عدم قدرتهم على الرحيل أو الهجرة ، أو بسبب ما كان لهم من ممتلكات واراض فضلوا الإقامة بجانبها ، أو بسبب بعض الإغراءات التى تعرضوا لها من النبلاء والأشراف للخدمة فى ضياعهم وقصورهم ، وهؤلاء هم الذين اطلق عليهم اسم المدجنين Losmadejares . وقد ظلوا يحتفظون بدينهم الإسلامى وثقافتهم العربية الإسلامية ويعيشون فى المجتمع المسيحى فى أحياء خصصت

---

(٤) سقطت طليطلة فى يد الأسبان سنة ١٠٨٥ م ، وطرويل سنة ١١٧١ م ، ومارِدة سنة ١٢٣٠ م ، وقرطبة سنة ١٢٣٦م ، ولنسية سنة ١٢٣٨ م ، ودانة ومرسية سنة ١٢٤٣ م — وجيان سنة ١٢٤٦ م ، واشبيلية سنة ١٢٤٨ م .

لهم فى اكثر من مائة مدينة كمواطنين من الدرجة الثالثة حتى تعرضوا بعد ذلك وبداية من اوائل القرن السادس عشر الميلادى سنة ١٥٠٢ م للاضطهاد والتنصير فتنصر منهم من تنصر وحافظ بعضهم على دينه سرا فاظهر النصرانية وابطن الإسلام ومارس شعائره سرا وذهب فى ذلك مذهب التقية مستدلا بقوله تعالى « **إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن شرح بالكفر صدرا** »(٥)» .

وبذلك ظهر ما يسمى فى التاريخ الأندلسى أو الأسبانى بالمشكلة الموريسكية التى شغلت ملوك اسبانيا نحو قرن من الزمان ، وأصبح هؤلاء المسلمون المدجنون الذين تعرضوا للتنصير يطلق عليهم اسم الموريسك او الموريسكيون او المواركة(٦) . وقد كان هناك من العلماء المسلمين

---

(٥) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ١٧٤ ، عادل بشتاوى : الاندلسيون المواركة ص ١٣ ، ص ٢٤٩ . عنان : نهاية الاندلس ص ٥٧ ، ص ٦٢ ، ملحمة المغازى الموريسكية ص ٢٧ .

(٦) كلمة موريسك تعريف لكلمة Moriscos القشتالية (الاسبانية) وهى تصغير لكلمة مورو Moros وتعنى المسلمين الجدد او الأصاغر ، وهى كلمة تشعر بالتحقير وضعف الشأن — وللأسف فإن هذه الكلمة لا زالت تطلق على المسلمين فى الفلبيين ويرددها الكثيرون دون تدبر حيث يطلقون على جبهة تحرير المسلمين فى جنوب الفلبين اسم جبهة تحرير مورو — وقد استخدم البعض بدلا منها اسم العرب المتنصرين ، كما عرفها البعض بانها تعنى المغاربة السود (البربر) الذين بقوا فى شبه جزيرة ايبيريا وتم تنصيرهم وصهرهم فى بوتقة المجتمع المسيحى فيما بعد ، كما

وخاصة فى المغرب من لم يرض ببقاء المسلمين واصدر فتوى تحرم عليهم البقاء ومنهم ابو العباس احمد بن يحيى التلمساني الونشريشى احد فقهاء المغرب (ت ٩١٤ هـ/١٥٠٨ م) الذى عاصر سقوط غرناطة وكتب فى ذلك رسالة عنوانها (اسنى المتاجر فى بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، وما يترتب على ذلك من العقوبات والزواجر)(٧) .

اختار معظم المسلمون الأندلسيون خيار الهجرة لأنهم راوا انه السبيل الوحيد للنجاة من الاضطهاد والتنصير القسرى ، ومن سيوف الأسبان المتعصبين وخاصة بعد سقوط غرناطة . وقدر (ستانلى لين بول) عدد المسلمين الذين انتقلوا إلى العدوة (بلاد المغرب) بحوالى ثلاثة ملايين شخص منذ سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م وحتى نفى آخر الأندلسيين سنة ١٦١٥ م(٨) .

= قصد بها البعض : العرب المسلمون الذين بقوا فى قشتالة وغرناطة بصفة خاصة بعد صدور مرسوم إيزابيلا سنة ١٥٠٢ م وكذلك الأندلسيون الذين بقوا فى بلنسية ونصروا بالقوة سنة ١٥٢١ م (انظر : عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٦ ، د. على مظهر : محاكم التفتيش ص ٢١ ، محمد عنان : نهاية الاندلس ص ٣٢٢ ، د. احمد شلبى : التاريخ الإسلامى جـ ٤ ص ١٠٦ ، مجلة دراسات ص ٧٨ هامش ٣ ، مجلة عالم الفكر مجلد ١٢ عدد ١ ص ١٨ ، د. صلاح فضل : ملحمة المغازى الموريسكية ص ١٣—١٥ .

(٧) نشرها د. حسين مؤنس فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد المجلد الخامس ١٩٥٧ م .

(٨) عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ١٩٠ .

اما الباقون فتدجنوا فى المدن والقواعد الإسلامية التى سقطت تباعا كطليطلة وطرويل وما ردة وقرطبة وبلنسية ودانية ومرسية وجيان واشبيلية ثم فى غرناطة بعد استسلامها إلى أن خيروا بين التنصر او الرحيل ، بموجب مرسوم ايزابيلا الذى صدر فى فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ م ، واعطوا مهلة شهور ثلاثة رحل فى خلالها إلى بلاد المغرب نحو ثلاثمائة الف ، واما الذين لم يرحلوا فقد اعتبروا متنصرين بموجب المرسوم ، واطلق عليهم اسم النصارى الجدد او الموريسكين(٩) .

اسباب الإبقاء على المدجنين فى اسبانيا :

ولكن ما هى الأسباب التى جعلت الاسبان يسمحون للمدجنين بالبقاء بالرغم من أن حركة الاسترداد المسيحى — كما يطلق عليها — لم تكن فقط لاسترداد سلطانهم واسقاط الكيان السياسى لدولة المسلمين فى الأندلس مع السماح للمسلمين بالبقاء كعناصر ظلت تعيش فى البلاد نحو ثمانية قرون حتى اصبحت من اهلها ، وإنما كانت تهدف فى النهاية إلى إزالة وجود المسلمين نهائيا من الاندلس افرادا وجماعات ومحاربة عقيدتهم الإسلامية ولغتهم العربية وما يتصل بهم بشتى الطرق والوسائل حتى نستطيع أن نطلق عليها حركة الإبادة والإفناء(١٠) .

---

(٩) الأندلسيون المواركة ص ١٥ ، ١٦ ، ١٩ نهاية الأندلس ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(١٠) شبيه بهذا ما يفعله الصرب والكروات بالمسلمين فى البوسنة والهرسك بمساعدة الغرب المسيحى المتعصب ، وتواطؤ المجتمع

نستطيع ان نقـــول إنه كان لبقـــاء المدجنين فى اسـبانيا فترة تصـل إلى نحـــو ثلاثة قرون عـــدة اسباب منها :

١ ـــ انه كان لا يزال هنـاك كيـــان سياسى قــوى للمسلمين فى اسبانيا ممثلا فى مملكة غرناطـــة مما جعل الاسبان وحلفاءهم من الدول المسيحية الاوربية يتحاشـون ولو إلى حين عملا صريحا كالطرد او الإبعـــاد ان لم يكن التنصير يثيرون به المتاعب والقلاقل ضـــدهم ، أو الخـوف من عمليات الانتقام التى قـــد يقوم بها المسلمون تجاه النصارى فى غرناطة او فى بلاد المغرب ومصر وتركيـــا .

٢ ـــ ان طـــرد المدجنين من اماكنهم التى سـيطر عليها الاسـبان واجلاءهم قـــد يجعلهم يشكلون عنصرا جـــديدا يواجههم ويزيد من نشاطه ضدهم ، ولذلك راى الاسبان ان من الافضل إبقاءهم إلى حين فى اماكنهم

=

الدولى والمؤسسات الدولية ، وتقاعس المسلمين فى أنحاء العـالم الإسلامى عن نصرتهم ، كما تقاعست الدول الإسلامية عن مناصرة المسلمين فى الاندلس مناصرة جـدية آنذاك . والتاريخ يعيد نفسه فى صورة جـديدة ، وهى حروب صليبية جـديدة تهـدف إلى طرد المسلمين نهائيا من اوربا ، والقضاء على الإسلام فيها .

وقـــد كانت السلطات الاسبانية تحصل باسم الكنيسة ضريبة للجهـــاد ضـــد المسلمين تسمى Crazoda كروزادا وكانت حصيلتها تقـــدر بحـــوالى ٩١٢ الف دوقـــة سـنويا (الاندلسيون المواركـــة ص ١٧٧) .

حتى تصبح الفرصة مواتية لذلك فيما بعد تبعا لسياسة التدرج أو الخطوة خطوة . وقد كان حيث خيروا بعد ذلك وبعد سقوط غرناطة وزوال سلطان المسلمين بين التنصر أو الرحيل .

٣ - رأى الاسبان أن بقاء المدجنين فى بعض المناطق سوف ينتهى بهم إلى الذوبان والانصهار فى بوتقة المجتمع المسيحى بطول الزمن وباستخدام شتى الوسائل . ولذلك فقد تحول هؤلاء المدجنون بعد أجيال إلى (موريسكيين) يستعملون اللغة القشتالية (الاسبانية) مكتوبة بحروف عربية بدلا من اللغة العربية التى حرمت عليهم وهى لغة الخميادو Aljamiads أى (الأعجمية) .

كما وجد نوع من العلاقة والمصاهرة بين بعض المدجنين والأسبان فى المناطق التى أقاموا بها ، وقد أدى هذا إلى انحلال عصبيتهم الإسلامية والعربية(١١) .

٤ - رأى الأسبان أن وجود هؤلاء المدجنين فى المناطق التى كانوا يقيمون بها أمر ضرورى للغاية حيث كان معظمهن يشتغل بكثير من المهن والأعمال التى يأنف منها الاسبان ولا يعملون بها - نظرا لأنهم كانوا يعتبرون انفسهم رجال حرب فقط - كالزراعة والحرف الصناعية والمعمارية والتجارة والخدمة ، وتمتعوا بالكثير من القدرات والخبرات والمهارات فى ذلك ، وكان اخراجهم وطردهم سيحدث فجوة هائلة وخسارة فادحة ستؤدى إلى توقف دولاب الحياة الاقتصادية وإقفارها(١٢) .

---

(١١) عنان : نهاية الأندلس ص ١٩٩ ، عصر المرابطين والموحدين ج ١ ص ٣٦٦ .

(١٢) د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٥٣٣ - ٥٣٤ ، عنان : نهاية الأندلس ص ٦٢ - ٦٣ ، عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

ولذلك فانه عندما همت السلطات الاسبانية يوما باخراج المدجنين من أماكنهم قامت جماعات من الأسبان وخاصة الأشراف والنبلاء بمعارضة ذلك طالبة العدول عن ذلك ، ليس من باب الرفق أو العطف وإنما حرصا على مصالحهم وأعمالهم . وقد أدى ذلك إلى الموافقة على عدم إخراجهم شريطة تركهم دينهم ودخولهم فى المسيحية(١٣) .

وعندما سقطت قرطبة فى يد الأسبان سنة ١٢٣٦ م لم تجد السلطات الحاكمة سوى المدجنين تعهد إليهم بالأعمال المعمارية والفنية فكان البناءون والنجارون وغيرهم من أهل الحرف الأخرى يعملون فى الكاتدرائية الكبرى مرتين فى كل عام .

وتقديرا لخدماتهم فقد أصدر حاكم المدينة الفونسو الحكيم سنة ١٢٨٠ م ـ رسالة نوه فيها بأعمالهم وتعهد فيها بألا يتعرض لهم احد بأذى(١٤) .

سياسة الأسبان تجاه المدجنين :

بالرغم من إبقاء الأسبان على المدجنين فى اماكنهم للأسباب التى سبقت إلا انهم تعرضوا لضغوط كثيرة ، وعاشوا فى أحوال قاسية تعرضوا فيها لاضطهادات شبه دائمة ، فقد اقاموا فى أحياء خصصت لهم فى أكثر

---

(١٣) عنان : نهاية الأندلس ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(١٤) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ١٦٧ ، د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ١١٠ .

من مائة مدينة كمواطنين من الدرجة الثالثة فى بلاد كانوا يحكمونها بالأمس(١٥) .

ووقعت على عاتق الكثيرين منهم الأعمال الشاقة فى الزراعة والصناعات والحرف والخدمة لصالح النبلاء والكنيسة بأجور زهيدة وربما بلا مقابل فى بعض الأحيان .

وعوملوا معاملة سيئة فى كثير من الأحيان ، فقد ألزمهم الأسبان بلباس خاص أو بشارة فى لباسهم تميزهم عن غيرهم مثلهم مثل اليهود وكانت على شكل دائرة صفراء قرب الصدر ، كما جعلوا لهم قوانين خاصة بهم منها :

انه لا يجوز لمسلم (مدجن) أن يستخدم مسيحيا ومن خالف ذلك تصادر املاكه ، وليس لواحد منهم أن يقبل دعوة مسيحى أو يدخل بيته إلا إذا كان طبيبا ، ومن فر منهم إلى ديار المسلمين فإنه يعتبر اسير حرب وتصادر جميع أملاكه ، ويكون ملكا لمن يقبض عليه من الأسبان ، ومن كان له دين على مسيحى فأنكره فلا شىء له إلا إذا كان مسجلا فى محكمة اسبانية ، وحرم عليهم رجالا ونساء لبس الحلل الحريرية او الموشاة والتزين بالذهب والفضة ، كما حرم عليهم ركوب الخيل وحمل

---

(١٥) ولا يزال فى مدينة قلعة ايوب فى اسبانيا إلى اليوم حى يعرف بحى المواركة Moreria لا يشعر اهل المدينة برغبة فى إرشاد السائح إليه ، وفيه مجموعة كبيرة من المساكن المبنية فى الكهوف كانت بعض المناطق التى عاش فيها الأندلسيون الموريسكيون وهو كغيره من الأحياء المشابهة يقدم لنا فكرة بسيطة عن نوع الحياة التى عاشوها . (عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٢٩٦) .

السلاح حتى السكين الصغير ، أو اظهار أى شىء من شعائر الدين الإسلامى بالقول أو الفعل ، ومن يعارض منهم فى تنصير أو تعميد احد من ابنائه يحكم عليه بغرامة فادحة ، ولذلك كان كثير منهم يقتلون ابناءهم خشية تنصيرهم ، وكان الصناع والزراع والحرفيون منهم يكلفون بالأعمال مثل العبيد ، ويجبرون على نحت التماثيل وبناء الكنائس وتجديد بعض الآثار المسيحية(١٦) .

ولا تزال الكثير من الآثار الإسلامية والمسيحية فى اسبانيا تنطق إلى اليوم بفن وبراعة المدجنين(١٧) .

---

(١٦) الاندلسيون المواركة ص ١٠٦ ، محاكم التفتيش ص ٢١ — ٣٦ ، رحلة الاندلس ص ١٣٩ — ١٤٠ .

(١٧) منها قصر أشبيلية وبه جزء يسمى المدجن ويعود تاريخه إلى سنة ١٣٣٦ م ، وواجهته تعتبر من أجمل الأمثلة على الفن المدجن فى اسبانيا ، ومنها مسجد المدجنين فى طليطلة ويسمى اليوم دار الدباغين . ولا تزال مدينة طرويل (تيرويل) تحتفظ بالكثير من ملامح هذا الفن إلى اليوم فى ابراجها وكنائسها ومنها برج سان بدرو الذى يعتقد انه أول برج شيد وفقا للطراز المعمارى المدجن . ولا يزال هناك فى طرويل إلى اليوم من ينحدر من سلالة المدجنين ويفتخر بذلك مثل راعى الكنيسة ، كما يفتخر شبابها بالفن المدجن الذى يلمون به إلماما جيدا ويصنعون على مثاله ويحتذونه ، وقد عقد فى هذه المدينة مؤخرا المؤتمر الثالث للفن المدجن الذى اكد على ضرورة الحفاظ على كل النقوش والآثار والقطع التى تنتمى لهذه الفتره الأثرية الهامة من تاريخ المسلمين .

وقد ادى هذا إلى رحيل الكثيرين منهم ، اما عن بقى منهم فقد حاول التأقلم مع هذه الأوضاع السيئة انتظارا لانفراج الأمور فى بعض الأحيان .

وقد عاش هؤلاء المدجنون فى المجتمع المسيحى وحاولوا التأقلم معه والاندماج فيه ومن هنا كثر الزواج بينهم وبين الأسبان ، وفقد المدجنون بمضى الزمن وتعاقب الأجيال دينهم ولغتهم وأصولهم العربية فنرى من بين زعماء شرق الأندلس بعض امراء يرجعون إلى أصل مسيحى مثل محمد بن سعد الذى عرف باسم (ابن مردنيش) ملك بلنسية ومرسيه وكان معظم قواده وجنده من المسيحيين وكان الأسبان يسمونه بالملك (دون لوبى)(١٨) .

وإذا كان المدجنون قد عاشوا أوضاعا سيئة فى الأعم الأغلب إلا انهم مروا بفترات قليلة فيها شىء من الانفراج والتسامح . فيذكر ان الملك بيدرو الثانى الملقب بالقاسى — للجوئه إلى أساليب دموية فى سبيل توطيد ملكه — والمعروف فى المصادر العربية باسم (دون بطره) اتخذ له حرسا من المدجنين ، كما عهد بإدارة حكومته إلى نفر من اليهود ارتيابا منه فى بنى وطنه ، وفى مارس سنة ١٣٦٧ هـ تعهد الملك بيدرو الرابع باطلاق حرية الهجرة للمدجنين فى المعاهدة التى عقدها مع

=

وقد اعتبرت منظمة اليونسكو كل آثار الفن المدجن ثروة إنسانية عالمية يجب الحفاظ عليها (انظر : أوراق أندلسية ص ٤٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٦٧ ، د. السيد سالم : مسجد المدجنين بطليطلة ص ٧٨ وبعدها) .

(١٨) عنان : نهاية الأندلس ص ١٩٩ ، اندلسيات ص ١٤٢ .

السلطان الغنى بالله سلطان غرناطة وكان الملك خايمى الثانى ملك ارغون قد منع خروجهم من اراضى مملكته إلى أرض المسلمين لأسباب اقتصادية وعمرانية(١٩) .

وهناك وثيقة تذكر ان ملك نبارة (نافار) طلب من ملك ارغون توفير الحماية لسفر ستة من الرعايا المسلمين للحج وذلك بسبب قيام المسلمين بتقديم الأعمال والخدمات فى مملكة نافار وكان منهم قواد شاركوا فى تدريب قواتها(٢٠) .

غير أن الضغوط التى تعرض لها المدجنون قبل العقد الثانى من القرن السادس عشر الميلادى اختلفت عن الضغوط التى تعرضوا لها بعده ، فقد ظهرت اللوثرية (حركة مارتن لوثر) التى أدت إلى انقسام المسيحين فى اوربا إلى كاثوليك وبروتستانت ، واندلاع الحروب الدينية بينهم ، وكانت اسبانيا (قشتالة) تعتبر نفسها حامية حمى الكاثوليكية تحاربت من اجلها ، ومن اجل ابقاء هيمنتها على ممالكها الواسعة فى اوربا ، غير انها منيت بهزائم عديدة . وقد انعكس اثر ذلك على المسلمين فكان التعصب الأعمى ضدهم وطردهم من الأندلس ، وفقدت اسبانيا بذلك اهم الدعائم التى اقامت عليها امبراطوريتها ، وعندما قام فرناندو الثالث بتفريغ قرطبة من سكانها المسلمين بعد سقوطها سنة ١٢٣٦ م رحل قسم كبير من سكانها إلى مناطق الاندلس الأخرى التى لم تسقط ، بينما آثر القسم الآخر اختصار الطريق وعبور العدوة إلى فاس وخلفوا وراءهم الكثير مما يذكر بفنونهم وعلومهم إلى اليوم .

---

(١٩) عنان : نهاية الأندلس ص ٦٢ ، ١٢٠ ، ١٤٨ ، ١٧٣ .
(٢٠) أوراق أندلسية ص ١٦٦ .

ومن غـادر الأندلس بعـد ذلك من المسلمين إلى المغـرب سـاهم فى عملية بنـاء مدنه حتى كان الطرد الجماعى للمسلمين منذ نهاية سنة ١٦٠٩ م ، وحتى سنة ١٦١٥ م(٢١) .

ابدى فرديناند وإيزابيـلا فى الأعـوام الأولى بعـد اسـتيلائهم على غرناطة شيئا من اللين فى معاملة المسلمين ، لكن السياسة الأسبانية كانت تخشى منهم دائمـا بالرغم من خضوعهم ، وكانت الكنيسة تجيش بنزعتها الصليبية المتعصبة ، وتغـذى الحقـد والضغينة ضـد المسـلمين وتريد القضاء على البقية الباقية منهم فى أسـبانيا فى غرناطة وبلنسية وسرقسـطة وغيرها من القواعـد الشرقية التى يؤلف فيها المدجنـون من المسلمين اقليـات كبيرة ، وكان كثير منهم إلى ما بعـد سقوط غرناطة باعوام طويلة لا يزالون يحتفظون بدينهم الإسلامى ، وكان وجود وجود هذه الجموع المسلمة فى قلب اسبانيا يمثل الشغل الشاغل السلطات الأسبانية والكنيسة . وكان الاسبان يخشون المسلمين وتجمعاتهم فى مملكة غرناطة بعـد سقوطها ، فاخـذوا فى التضييق عليهم واضطهادهم بشتى الوسائل والاجراءات ، حيث الزموهم بالسكنى فى احياء خاصة بهم على نحو ما كان متبعا مع اليهود فى أوربا فى العصور الوسطى — وكانت تسمى (موريريا) بينما كانت أحياء اليهود تسمى (جيتو) — وكانت تفصل بينها وبين أحياء الأسبان أسوار كبيرة ، ويقـدر عـدد المسلمين الذين بقـوا فى غرناطة حتى ذلك الوقت سنة ١٥٠١ م نحو اربعين الف مسلم(٢٢) .

---

(٢١) الأندلسيون المواركة ص ١٩٨ .

(٢٢) افرد بغرناطة للمسلمين المنصرين حيان : الحى الصغير ويضم نحـو خمسمائة منزل ويقـع داخل المدينة ، والحى الكبير ويضم نحـو خمسة آلاف منزل ويشمل ضاحيـة البيازين (نهـاية الأندلس ص ٣٢٦ — ٣٢٧) .

وصـــدر فى سبتمبر سنة ١٥٠١ م قانون يحرم على المسلمين إحراز السلاح وكانت العقـوبة هى الحبس والمصـادرة للمخالف لأول مرة ، اما من تكرر منه ذلك فعوبته الإعـدام ، كما صـدر فى فبراير سنة ١٥١٥ م مرسوم ملكى يحرم على المسلمين المتنصرين حـديثا والمدجنين من اى جهة من قشتالة ان يخترقوا أراضى مملكة غرناطة ، وأن يبيعوا أملاكهم بدون ترخيص من الحكومة ، ومن خالف ذلك عوقب بالمصادرة والموت ، فـكان كثير منهم يظهر التنصر حتى يستطيع بيـع أملاكه ثم يرحل إلى المغـرب فيعود إلى الإسـلام مرة أخرى(٢٣) .

وبعـد ان فرض التنصير على المسلمين المترقين فى اسبانيا فر بدينه من فر منهم واما من بقى فقـد حاول بشتى الطرق المحافظة على شـعائر دينه سرا وإن اظهر النصرانية . وقام بعض العلماء منهم كعيسى بن جابر الشقوبى — من بلدة شقوبية — بوضع عـدة مؤلفات دينية ليستفيد منها هؤلاء المسلمون فى امور دينهم خفية . ومن اشهر ماخص واجبات المسلم الذى يعرف بكتاب (كدوريانو) أو كتاب شقوبية(٢٤) .

يقـول المقـرى : « ثم بعـد هـذا كلـه كان من أظهـر التنصر من المسلمين يعبد الله خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى فى البحث حتى انهم احرقـوا كثيرا منهم بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحـديد ... الخ »(٢٥) .

---

(٢٣) نهـاية الاندلس ص ٣٢٧ .
(٢٤) اوراق اندلسية ص ١٦٥ — ١٦٦ .
(٢٥) نفح الطيب ج ٤ ص ٥٢٧ .

أما المسلمون الذين بقوا فى مملكة البرتغال فقد كان مصيرهم فيها يبدو أفضل حالا من مصير إخوانهم مسلمى أسبانيا فقد قضى الملك البرتغالى باخراجهم من أراضى مملكته سنة ١٤٩٦ م ، وسمح لهم بالرحيل إلى المغرب او أى جهة أخرى ، وطلب من ملكى أسبانيا (فردناند وايزابلا) السماح لهم بعبور أراضى مملكة قشتالة فوافقا على ذلك فى ابريل سنة ١٤٩٧ م شريطة الا يحملوا معهم الذهب والفضة(٢٦) .

احوال المدجنين بعد سقوط غرناطة(٢٧) :

---

(٢٦) نهاية الأندلس ص ٣٢٢ .

(٢٧) كلمة غرناطة تعنى رمانة بلسان عجم الأندلس ولعلها مشتقة من الكلمة الرومانية Granata بمعنى رمانة ، ولذلك فإنه يشار إليها فى بعض المصادر العربية بحصن الرمان . ويرى البعض أن هذه التسمية ترجع إلى أصل قوطى أو إلى أصل بربرى مشتق من اسم إحدى القبائل البربرية ، وهى أقدم مدن كورة البيرة وأعظمها واحسنها وأحصنها يشقها نهر حدارة الذى يعرف اليوم باسم دارو Darro أو دارة . وقد دخلها الإسلام فى المرحلة الأولى من الفتح الإسلام على يد عبد العزيز بن موسى ابن نصير الذى قدم إليها من مالقة بعد فتحها (انظر المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٧٢ ، ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٩١ — ١٣١ ، الروض المعطار ص ٢٣ ، معجم البلدان ج ٤ ص ١٩٥ ، نهاية الأندلس : ص ٢٢ ، أوراق اندلسية ص ١٤) . وقد اتخذ الأسبان من اليوم الذى سلمت فيه غرناطة فى يناير سنة ١٤٩٢ م عيدا قوميا يحتفلون به كل عام (أنظر : عنان : أندلسيات ص ١٦٠) .

كان زواج فرناندو (فرديناند) ملك ارغون من ايزابيلا (إيسابلا) ملكة قشتالة سنة ١٤٦٩ م من أهم العوامل التى وجدت عرش هاتين المملكتين المسيحيتين فى اسبانيا ضد المسلمين ، وكان هذا الاتحاد نذيرا بانتهاء النفوذ السياسى للمسلمين فى الأندلس . ولم يكن سلاطين بنى نصر (بنى الأحمر) فى قوة كبيرة تمكنهم من مواجهة هذا الخطر المسيحى المتزايد نتيجة للمنازعات والخلافات المستمرة فيما بينهم على الملك والرئاسة ، ولما شاب علاقاتهم بدولة بنى مرين فى المغرب من ريبة وشك وتذبذب . فقد كانوا يستنجدون بهم عند الخطر ولكنهم سرعان ما تساورهم الشكوك فيخشون فقدان ملكهم على أيديهم ، ولذلك فإنهم كثيرا ما تواطئوا مع الاسبان لإبعادهم عن الأندلس(٢٨) .

ولذا رأى الملكان الكاثوليكيان أن الوقت قد حان لتوجيه الضربة الأخيرة للمسلمين بالاستيلاء على آخر معقل لهم فى الأندلس وهو غرناطة التى كانت رمزا للدولة الإسلامية الذاهبة من الأندلس .

وقد استغل هذا الملكان اندلاع الخلافات بين افراد الأسرة الحاكمة فى غرناطة وحركا آلة الحرب ضدها ، وضربا الحصار على السواحل يستخدم اساطيل ارغون والبرتغال وإيطاليا لمنع وصول العون والإمدادات إليها من الشمال الإفريقى (بلاد المغرب) ، وأخذا فى احتلال المدن الرئيسية فى المملكة ، وبدأت حلقة الحصار تضيق حول مدينة

---

(٢٨) عنان : نهاية الأندلس ص ٢٢٨ ، الورفلى : اوراق اندلسية ص ١٤ .

غرناطة شيئا فشيئا واستخدم الاسبان المدفعية على نطاق واسع لتقذف بحممها على المدينة(٢٩) .

وأصبح الخيار المطروح أمام المسلمين فى غرناطة إما القتال دون أمل يذكر فى تحقيق النصر او الاستسلام للعدو ، وضرب فرناندو حصارا صارما حول المدينة بجيش بلغ تعداده خمسين الفا أو ثمانين الفا ، واستعد لذلك فانشأ مدينة مسورة تقيه برد الشتاء والثلوج — بعد أن طال الحصار لمدة سبعة او تسعة اشهر — إلى الجنوب الغربى من غرناطة وسميت سانتا فى Saint — pe أو شنتفى أى الإيمان المقدس وهذا يوضح المغزى الدينى لهذه الحرب الصليبية(٣٠) .

---

(٢٩) عرفت المدافع التى استخدمت ضد غرناطة ومالقة باسم لومبارد وكان من اضخمها واشدها أثرا مدفع أطلق عليه (اخوات خمينيس السبع) نسبة إلى رئيس اساقفة غرناطة الكاثوليكى المتعصب خمينيس (زمنيز) (الاندلسيون المواركة ص ٩٨ هامش ١) .

(٣٠) ما تزال هذه المدينة قائمة إلى اليوم على مسافة قريبة من جنوب غرب غرناطة ، ويصفها المؤرخ الأسبانى بريسكوت بانها المدينة الاسبانية الوحيدة التى لم تطأها قدم مسلم (نهاية الأندلس ص ٢٣٦) . ومنذ البداية كان هناك توافق بين مرحلة سقوط الأندلس ومرحلة الحروب الصليبية ، وهو توافق لم يأت عن طريق المصادفة ، فقد كانت طليطلة اولى المدن الاندلسية سقوطا سنة ١٠٨٥ م (٤٧٨ هـ) ، وكان سقوط بيت المقدس بايدى الصليبيين

ومما يدل على ذلك : أن البابا سيكتوس الرابع عندما تلقى من إيزابيلا رسالة تعرض فيها خطتها للاستيلاء على مملكة غرناطة أبدى تحمسا شديدا لها ، وأصدر إرادة بابوية بشن حملة صليبية ضدها فى أكتوبر سنة ١٤٦٩ م تضمنت السماح لها ولزوجها فرديناند بتحصيل ضريبة للجهاد ضد المسلمين ، ثم جاء من بعده البابا أنوسنت الثامن (١٤٨٤ — ١٤٩٢ م) فاستكمل ما بدأه سلفه فجدد هذه الإرادة البابوية عدة مرات حتى سقطت غرناطة وأرسل إليه فرناندو يبشره بقوله « ولدك المطيع المخلص ملك قشتالة وليون وأرغون وصقلية وغرناطة يقبل قدميك ويديك الطاهرتين ويبشرك بأن الرب أنعم علينا بنصر مبين على مسلمى غرناطة أعداء ديننا الكاثوليكى الطاهر »(٣١) .

ومما يدل على ذلك ايضا أن الكنيسة كانت قد أصدرت مرسوما أعفت بموجبه الاسبان من الاشتراك فى الحروب الصليبية حتى يحاربوا المسلمين فى الأندلس . هذا إلى جانب من شاركهم من مسيحيى أوربا(٣٢) .

سنة ١٠٩٩ م (٤٩٢ هـ) عامل تشجيع لزيادة دعم ملوك أوربا والكنيسة للأسبان المسيحين لاسترداد بقية الأراضى من المسلمين وطردهم نهائيا (الأندلسيون المواركة ص ٥٩) .

كما نلحظ توافقا بين سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ م وبين سقوط غرناطة فى يد الأسبان سنة ١٤٩٢ م مما يجعلنا نقول إن هذه دفعت ثمن سقوط تلك .

(٣١) الأندلسيون المواركة ص ٦٨ .

(٣٢) أوراق اندلسية : ص ٤١ .

ولم تستسلم غرناطة لقدرها المحتوم بسهولة بل دافع عنها اهلها دفاعا مستمرا وظهرت من كثير منهم ضروب من البطولات ، ولكن هذا لم يكن ليصمد طويلا امام هذا الحصار الأسبانى الصارم ، ولم يعد امامهم اى امل فى الغوث او الانقاذ من الدول الإسلامية فى ذلك الوقت سواء من بلاد المغرب او مصر او الدول العثمانية . وظلت المدينة تعانى آلام الحصار حتى دخل الشتاء واشتد الجوع والبلاء بأهلها ، وهنا تشاور الملك ابو عبد الله مع كبار القادة والعلماء والأعيان فاستقر الرأى على التسليم عدا القائد موسى بن أبى الغسان الذى حاول ان يبث الحماسة فى النفوس دون جدوى(٣٣) .

واستمرت المفاوضات بين الطرفين عدة اسابيع حتى تم الاتفاق على وضع بنود معاهدة التسليم ووقعت فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ م (٢١ محرم سنة ٨٩٧ م) وفى نفس اليوم وقعت معاهدة اخرى او ملحق سرى للمعاهدة الاولى ويتضمن الحقوق والمنح التى ستعطى للسلطان أبى عبد الله الغرناطى وأسرته وحاشيته(٣٤) .

---

(٣٣) نهاية الأندلس ص ٢٤١ .

(٣٤) تذكر معظم المصادر العربية أن هذه المعاهدة تضمنت سبعة وستين شرطا . بينما يذكر الأستاذ عنان أن هذه الشروط بلغت ستا وخمسين مادة كما نقلها عن نصوصها القشتالية . ولا تناقض فى لذلك فلعل هناك دمجا لبعض الشروط فى بعضها فى النص الأسبانى وتفصيل لبعض هذه الشروط فى المصادر العربية (أنظرها فى نفح الطيب جـ ٤ ص ٥٢٥ وبعدها ، نبذة العصر ص ٤٨ — ٥٠ ، أزهار الرياض جـ ١ ص ٦٧ ، عنان : نهاية الأندلس ص ٢٤٥ وبعدها) .

خــرق الأســبان للمعاهــدة :

شملت معاهــدة تسليم غرناطة من الشروط ما يمكن اهلهــا من ان يعيشوا عيشة مقبولة لا بأس بها فى ظــل الحكم الأسبانى ، حيث ضمنت سلامة ارواحهم وممتلكاتهم ، وسمحت لهم بالهجرة إلى المغرب إذا ارادوا، وإطلاق سراح الأسرى المسلمين ، وعــدم إكراه أحــد منهم على التنصر ، وعــدم طردهم من ديارهم ، أو زيادة الضرائب عليهم ، والسماح لهــم بممارسة شــعائر دينهم ... الخ .

واشترط موافقة البابا وتوقيعه عليها ، إلا أن فرديناند وايزابيــلا اخــذا فى تشجيع المسلمين وحثهم على الرحيل وضيقوا عليهم ، وقصروا إقامتهم على اماكن معينــة فى منطقــة البيازين(٣٥) . وتم توطين آلاف من الأسبان المسيحين فى المناطق الأخرى من غرناطة .

سلمت غرناطة فى اليوم الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ م فى يوم مروع كان وقعــه شديدا على نفوس أهلهــا ونفوس المسلمين جميعا فى ذلك الوقت ، وقام أبو عبد الله بتسليم مفاتيح المدينة للملك فرناندو(٣٦) ودخلت

---

(٣٥) البيــازين : Albaician البيــازين أو البيابســين نسبة إلى مدينة بياســة شرق قرطبة حيث نزح أهلها عنها بعد سقوطها واستقروا فى الرباض التى تشرف على نهر حــدرة من الجهة المقابلة للحمراء وغرناطــة فنسبت إليهم (أوراق اندلسية ص ٢٠ ، أدب الأندلس وتاريخها ص ٦٧) .

(٣٦) تذكر بعض الروايات أن مفاتيح المدينة سلمت للقائد الأسبانى دون غرنارى وأن القائد المسلم ابن كماشــة هــو الذى قــدم مفاتيح الحمراء إلى الملك فرناندو (عنان نهاية الأندلس ص ٢٦٦) .

طلائع الجيش الأسبانى المدينة ونصبت على الحمراء(٣٧) فى قمـة برج نيـلا راية القـديس جاك إلى جانب الصليب الفضى(٣٨) .

وخرج أبو عبد الله إلى ضيعة صغيرة كان الملكان المنتصران قـد اعـداها لـه فى منطقة البشرة أو البشرات جنوبى غرناطة ، وأشرف اثناء خروجه على منظر مدينة غرناطة . واخـذ يسرح ببصرة لآخرة مرة فى هـذه الربوع التى شـهدت عزة وملكه وسلطانه فأنهمر دمعه وأجهش فى البكاء فصاحت به امه عائشة قائلة القولة المشهورة :

أجل ذلتبك كالنساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال(٣٩)

---

(٣٧) قصر الحمراء : بدأ بناءه أبو الوليـــد إسماعيل خامس أمراء بنى الأحمر ١٣٢٥ م ، ثم زاد فيه ابنه الحجاج يوسف ١٣٥٤ م ، ثم أتمه محمد الغنى بالله ١٣٥٩ م ، وقـد وسـع القصر والبسه حـلة من الجمال والبهاء واستمر البناء فيـه نحو خمسين سنة حتى صار كالمدينـة ولذلك يطلق عليـه البعض اسم مدينة الحمراء (أوراق أندلسية ص ٢٤) . دائرة معارف الشعب (كتاب الشـعب ٦٤) ص ١٢٤ .

(٣٨) ليفى بروفنسال : أدب الأندلس وتاريخها ص ٦٢ .

(٣٩) يذكر بعض الباحثين المعاصرين أن العبارة لم تكن بهـذه الصـورة وإنما كانت (لا تبـك كالنساء ملـكا حافظت عليـه كالرجـال) وأن الأسبان هم الذين حرفوها لتكون بهـذه الصورة . ولا ندرى من أين اتى بذلك رغم أن المصادر القـديمة والحـديثة قـد ذكرت العبارة بصورتها الأولى ، وهى ابلغ فى الدلالـة لأن هـذا الملك لم يحافظ على ملكه كالرجال لتعاونه مـع الأسبان فى بعض الأحيان من اجـل مساندة ملكه وسـلطانه ، واستعانته بهم ولـما جاءت اللحظة الحاسمة بكى كالنساء ، ولم يكن رجلا ليصمد ويتحمل نتائج

ولا يزال ذلك المكان الذى بكى فيه أبو عبد الله يعرف اليوم لدى الأسبان باسم (زفرة المورسكى الأخيرة) أو زفرة العربى الأخيرة(٤٠).

وخرج أبو عبد الله - الذى يسميه الاسبان بالملك الصغير اوبوباديل ويلقب (بازغيبى أو عاثر الحظ) إلى المغرب ومعه أهله وحاشيته وعاش فى فاس حتى توفى بها سنة ٩٤٠ هـ وبقى نسله فيها إلى سنة ١٠٣٧ هـ يعيشون فى حالة مادية ضيقة ويصرف لهم من أوقاف المسلمين(٤١).

حسب هذه المعاهدة تعهد الملكان الكاثوليكيان بأمور كثيرة للمسلمين لكنهما لم يوفيا بذلك طويلا فقد أخذا ينقضان نصوص المعاهدة شيئا فشيئا ، ويعدلان فيها حسب ما يحاولهما ، ويفسرانها حسب ما يريدان لتنفيذ اهدافهما فى القضاء على الإسلام والمسلمين فى الأندلس .

كان من شروط التسليم أن تظل للمسلمين حريتهم الدينية واملاكهم على أن يصبحوا من رعايا الحكومة الأسبانية ، لكنها لم توف بذلك

المأساة التى صنع أجزاء منها بيديه حتى لقبه البعض بالملك الخائن وقد حاول الدفاع عن نفسه وتوضيح موقفه فى رسالة بليغة كتبها على لسانه وزيره وكاتبه محمد بن عبد الله العقيلى . انظر : أوراق أندلسية ص ١٥٢ ، د. أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٦ ، عنان : نهاية الأندلس ص ٢٨٠ .

(٤٠) بروفنسال : أدب الأندلس وتاريخها ص ٦٣ . ولا يزال هذا المكان من المزارات السياحية الهامة لدى الأسبان فى غرناطة (عنان : نهاية الأندلس ص ٢٦٧ ، أندلسيات ص ١٠٠) .

(٤١) محاكم التفتيش ص ١٥ ، أندلسيات ص ١٠٣ .

إلا سنوات معدودة حتى تستطيع بسط سلطانها وسيطرتها كاملة على سكان غرناطة .

وحاول أول رئيس لأساقفة غرناطة (هرناند وطلبيرة) اقناع المسلمين فى غرناطة باعتناق المسيحية ، وفى سبيل ذلك طلب من القساوسة تعلم اللغة العربية ، وترجم عددا من الكتب المسيحية إلى العربية . هذا فى الوقت الذى كان فيه نبلاء قشتالة المسيحيين يلتهمون أراضى وممتلكات أهل غرناطة المسلمين بكل وسيلة ممكنة(٤٢) .

ومضت بضع سنوات ثقيلة والمسلمون يحاولون التأقلم مع واقع جديد تفرضه السلطات الاسبانية من النهب والمصادرة والاضطهاد والتضييق ، وبدأت المساجد تتحول قسرا إلى كنائس ، وأخذ اليأس يدب فى نفوس المسلين بعد أن فقدوا الأمل فى الحصول على عون إخوانهم فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت(٤٣) .

وبدأ رئيس أساقفة غرناطة الجديد المتعصب خمينيس (زمنيز)

---

(٤٢) الأندلسيون المواركة ص ١٠٧ ، نهاية الأندلس ص ٣٢٤ ، د. محمود المقداد تاريخ الدراسات العربية فى فرنسا ص ١٩ - ٢٠ .

(٤٣) شبيه بهذا موقف الدول الإسلامية من مأساة البوسنة والهرسك من التقاعس والتخاذل ، وعدم المناصرة الجدية والفعالة وعدم التحرك على مختلف الأصعدة لحل هذه الازمة ، وعدم فتح باب الجهاد والتطوع لمن يريد ، كل ما هنالك مساعدات ضئيلة من المال والطعام والدواء والملاج لا تجدى فتيلا ، والمسلمون يحتاجون فى الدفاع عن أنفسهم إلى معونة وسلاح لا إلى مجرد كلمات الشجب والإدانة .

فى تنفيذ مخططاته الخبيثة لإجبار المسلمين على التنصر بشتى السبل ، واتخذ أعوانه شتى وسائل الاضطهاد والتعذيب لحمل المسلمين على ترك دينهم وسلخهم عن تاريخهم وحضارتهم .

وأخذوا يحرقون كل ما تقع عليه أيديهم من مصاحف ومخطوطات وكتب إسلامية وعربية ، ومنها آلاف المخطوطات التى أحرقت فى الميدان الرئيسى فى غرناطة بأمر ذلك المتعصب . وبدأت محاكم التحقيق (التفتيش) تمارس اختصاصاتها ضد المسلمين متخذه فى ذلك أبشع أساليب التعذيب والموت .

وكان لابد لهذه السياسة المتعصبة من أن تثير مكامن الحقد والغضب فى نفوس المسلمين فكانت ثورتهم الأولى فى منطقة البيازين سنة ١٥٠٠ م والتى امتدت إلى البشرات وبسطة ووادى آش والجبل الأحمر ولكن قضى عليها فى شدة وقسوة بالغتين(٤٤) .

بعد أن تدخل الملك فرناندو للقضاء عليها بنفسه على أثر مقتل الكثيرين من الأسبان فى المعارك التى خاضوها ضد المسلمين ووصل عددها إلى ثلاث وعشرين معركة(٤٥) .

وعلى اثر هذه الثورة صدر مرسوم فى الحادى عشر من فبراير سنة ١٥٠٢ م من الملكة إيزابيلا يخير جميع المسلمين بين الخروج من الأندلس أو اعتناق المسيحية ونص على : ان من واجب أهل قشتالة

---

(٤٤) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١٧٥ ، الأندلسيون المواركة ص ١١٤ — ١١٨ .

(٤٥) مؤلف مجهول : نبذة العصر فى أخبار دولة بنى نصر ص ٤٥ .

طرد أعـداء الدين المسيحى من مملكتى قشتالة وليون ، والا يبقى ذكـر فـوق سن الرابعة عشرة ولا أنثى فـوق سن الثانية عشرة بعـد شهر إبريل (نيسان) إلا إذا تنصروا ، وسمح للمسلمين ببيع عقاراتهم وممتلكاتهم إذا رغبوا فى الرحيـل ، وحظر عليهم إخراج الأموال فى نفس الوقت ، وتم تنفيذ ذلك بكل دقـة من قبـل السلطات الاسبانية ، وبنهاية المـدة المحـددة التى لا تتجاوز الثلاثة أشهر رحـل عن الأندلس نحو ثلاثمائة ألف مسلم إلى المغـرب ومصر وبلاد الشـام(٤٦) ومن بقى أصبح منصرا بموجب هـذا المرسـوم .

ويصور المقرى ذلك فيقول : « ثم إن النصارى نكثوا العهـد ، ونقضوا الشروط عروة عروة إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعـد أمور وأسباب أعظمها وأقـواها عليهم أنهم قالوا : إن القسيسين كتبوا على جميع من أسلم من النصارى أن يرجعوا قهرا للكفر ففعلوا ذلك ، وتكلم الناس ولا جهـد لهم ولا قـوة ، ثم تعدوا إلى أمر آخر وهـو أن يقولوا للرجل المسلم : إن كان جـدك نصرانيـا فأسلم فترجع نصرانيا ، ولمـا فحش هـذا الأمر قـام أهـل البيازين على الحكام وقتلوهم وهـذا كان السبب للتنصر (التنصير)(٤٧) .

ويقول أيضا : « فلمـا رأى الطاغية فرناندو أن الناس قـد تركوا الجواز (الرحيل) وعزموا على الاستيطان والمقـام ، أخـذ فى نقض الشروط التى اشترط عليها المسلمون أول مرة ــ عند سقوط غرناطة ــ

(٤٦) الأندلسيون المواركة ص ١١٩ .

(٤٧) نفح الطيب جـ ٤ ص ٥٢٧ .

ولم يزل ينقضها فصلا فصلا إلى ان نقض جميعها وزالت حرمة المسلمين ، وأدركهم الهوان والذلة ، واستطال عليهم النصارى وفرضت عليهم المغارم الثقيلة ، وقطع عنهم الأذان فى الصوامع ، وأمرهم بالخروج من غرناطة إلى الارباض والقرى فخرجوا اذلة صاغرين . ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر واكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا فيه كرها وصارت الاندلس كلها دار كفر »(٤٨) .

ويقول : « وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة وامتنع قوم عن التنصر واعتزلوا سرا النصارى فلم ينفعهم ذلك »(٤٩) .

ويقول صاحب كتاب نبذة العصر الذى عاصر سقوط غرناطة فيما يبدو : « ثم بعد ذلك دعاهم (اى فرديناند) إلى التنصير (التنصر) واكرههم عليه وذلك سنة اربع وتسعمائة فدخلوا فى دينه كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا من يقولها بقلبه وفى خفية من الناس »(٥٠) .

لكننا لا نستطيع أن نسلم بما قاله المقرى وصاحب كتاب نبذة العصر بسهولة فما حدث فى الواقع لا يؤيد القول بأن المسلمين تنصروا بالجملة عن آخرهم بادية وحاضرة ، وان الأندلس كلها صارت دار كفر أو نصرانية مرة واحدة ، فلم يكن من السهل تطبيق هذا المرسوم على كل الاندلسيين المسلمين فى هذه المدة القصيرة التى لا تتجاوز الثلاثة أشهر، وفى كل مكان لاسيما وان هناك اقليات مسلمة كانت تعيش

(٤٨) أزهار الرياض جـ ١ ص ٦٨ — ٦٩ .
(٤٩) نفح الطيب جـ ٢ ص ٦١٦ .
(٥٠) نبذة العصر فى أخبار دولة بنى نصر ص ٥٤ — ٥٥ .

فى أماكن نائية ، بالإضافة إلى أن المرسوم لم يشر إلى مسلمى مملكة أرغون ، ويبدو أن تركيزهما كان منصبا — كغيرهم — على غرناطة وما حدث فيها فحكما بذلك .

والحقيقة أن المسلمين فى مملكتى قشتالة وليون وجدوا أنفسهم متنصرين بصورة قسرية وبواسطة مرسوم مفروض عليهم اعتبارا من أوائل شهر مايو سنة ١٥٠٢ م (٩٠٧ هـ) ، واضطر المسلمون المدجنون تحت وطأة التهديد والاضطهاد والتنكيل فى أبلة وسمورة وجليقية إلى التنصر كذلك بعد أن كانوا لا يزالون محتفظين بدينهم الإسلامى حتى ذلك الوقت(٥١) .

وهكذا أضافت الكنيسة الكاثوليكية فى اسبانيا إليها نحو نصف مليون مسلم منصر بالاسم فقط ، وحولت مساجدهم إلى كنائس ، وأزيل بعضها ، ومنعوا من ممارسة شعائرهم الإسلامية ولكنهم استمروا يمارسونها فى الخفاء(٥٢) .

وفى سنة ١٥٠٨ م (٩١٤ هـ) أصدر الملك فرناندو (فرديناند) مرسوما يحظر فيه على الأندلسيين المسلمين استخدام اللغة العربية ،

---

(٥١) عنان : نهاية الأندلس ص ٣٢٣ ، الأندلسيون المواركة ص ١٣١ .

(٥٢) راجع نفح الطيب جـ ٢ ص ٦١٦ — ٦١٧ ، نبذة العصر ص ٥٥ ، وقد ذكر البعض أن عدد سكان غرناطة قبل سقوطها كان يقدر بنحو مليون نسمة ، وأن عدد سكان قشتالة قدر بنحو ستة ملايين (انظر أوراق أندلسية ص ١٩ ، ٢٠) . ونعتقد أن عدد سكانها قبل السقوط كان أكثر من ذلك حيث انضم إليهم الكثيرون من المسلمين من المدن والقواعد التى سقطت فى يد الأسبان المسيحيين .

وارتداء الملابس التقليدية ، وممارسة العادات والتقاليد الإسلامية والعربية لكنهم تجاهلوا ذلك فى أحيان كثيرة .

ولم تستطع السلطات الاسبانية تطبيق هـذا المرسوم بدقة بسبب عناد وإصرار المسلمين على الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليـدهم ولغتهم ، ولم تشدد السلطات فى ذلك كثيرا خشية اندلاع الثورات مرة اخرى(٥٣) .

ولجـأت الحكومة الاسبانية إلى شىء من أساليب الرفـق واللين والوعـود إلى جانب أسـاليب التهـديد والوعيـد وصولا إلى تحقيق اهـدافها فى تنصير من بقى من المسلمين ، وبالرغم من عـدم جـدوى هـذه الاساليب كثيرا إلا أن العاهلين الكاثوليكيين لم يقـوما بترحيـل جميع المسلمين من اسبانيا برغم قـدرتهما على ذلك حتى لا يؤدى هـذا إلى خراب غرناطـة وغيرها كما حـدث فى المناطـق الأخرى التى اجبر المسلمون على مغادرتها فى السابق ، فلا يمكن ملء الفراغ الذى سيتركه المسلمون فى غرناطة وغيرها بسهولة خاصة وانهم يعملون فى شتى مناحى الحياة ولذا فقد تأجلت عملية الطرد أو الإبعاد إلى بداية القرن السابع عشر الميلادى(٥٤) .

وفى عهـد الملـكة خـوانا المعتـوهة (١٤٧٩ ــ ١٥٥٥ م)(٥٥)

---

٥٣) الاندلسيون المواركة ص ١٤٣ .

٥٤) الاندلسيون المواركة ص ١٢٢ .

٥٥) كانت الاميرة ضونيا خوانا قـد تزوجت من الأرشيدوق النمساوى (ضـون فيليب الجميل) ، ولدى وفاة أمها الملكة إيزابيلا الكاثوليكية سنة ١٥٠٤ م آلت وراثة العرش إليها طبقـا لأمر والدتها الـذى

=

والذى امتد من ١٥٠٤ إلى ١٥١٦ ، ازدادت المراسيم الجائرة التى صدرت بشأن المسلمين فى الأندلس ، وصارت اكثر بنودا وأشد تضييقا حيث كان الكاردينال المتعصب (خمينيس دى سيسنيروس) رئيس مجلس الوصاية الحاكم باسم الملكة هو المشرع والمنفذ لهذه المراسيم التى تتميز بالقسوة والصرامة ، والتى أريد بها طمس كل اثر للإسلام والعروبة فى نفوس المسلمين المتبقين فى الأندلس ، ومن هذه المراسيم :

= اصدرته قبيل وفاتها فى نفس العام ، وطبقا لأعراف قانون الوارثة المتبع فى البلاد وكانت ابنتها الكبرى ، وما إن تولت العرش بعد زواجها حتى قامت منافسة شديدة بين زوجها وبين والدها فرديناند تحولت إلى خصومة شديدة أودت بحياة فيليب ، فيقال إن فرديناند قد دس من سقى السم لزوج ابنته فى ٢٥ ايلول سنة ١٥٠٦ م ، وحزنت خوانا لفقد زوجها حزنا شديداً ، وفقدت صوابها ، وغدت كالمجنونة حتى أصبحت غير قادرة على إدارة ممتلكاتها ، فقام بذلك مجموعة من النواب أو المتنفذين يحكمون بالنيابة عنها . وكان لوالدها نصيب الأسد فى هذه النيابات حيث حكم بالنيابة عنها مرتين : الأولى من سنة ١٥٠٤ إلى ١٥٠٦ م قبل وفاة زوجها ، والثانية من ١٥٠٧ حتى وفاته هو سنة ١٥١٦ م ، وقبيل وفاته أوصى بميراث العرش لحفيده شارل الأول تحت وصاية الكادرينال المتعصب سيسنيروس وهو فى سن السابعة فتتابع مخططاته الانتقامية ضد المسلمين .

(انظر مجلة دراسات ص ٧١ وبعدها) .

مرسوم خاص بالملابس :

يحظر على المسلمين المنصرين ارتداء الملابس العربية التقليدية ويلزمهم بارتداء الملابس الاسبانية ، وأمهلهم ست سنوات لتنفيذ ذلك ثم زيدت المدة بعد ذلك إلى عشر سنوات ، كما صدر مرسوم آخر يلزم كل طبقة اجتماعية بلبس ملابس خاصة بها ، واعطيت النساء المسلمات مدة سنتين كمهلة للتخلص من استخدام الملحفة وغطاء الرأس .

مرسوم خاص بالذبائح :

وفيه يحظر على المسلمين المنصرين ذبح حيواناتهم على الطريقة الإسلامية ، وأن تذبح فى المسلخ الحكومى ، ويقوم بالذبح جزار مسيحى من اصل اسبانى قديم . واستثنى من ذلك صيد الجبال والدواجن فى البيوت ، ثم ما لبث ان الغى هذا الاستثناء ايضا فى يوليو سنة ١٥١٣ م .

مرسوم خاص بالزواج :

يلزم المسلمين المنصرين (الموريسك) بالزواج على الطريقة المسيحية ،وان يتزوج المسلم المنصر من مسيحية اصيلة ، وتتزوج المسلمة المنصرة من مسيحى اصلى ، وان يكون الاشبين القائم بالتزويج من المسيحين القدماء وليس من الموريسكيين او اليهود المعمدين حديثا .

مرسوم خاص بالزيارات :

ويلزم المقيمين خارج غرناطة من المسلمين المنصرين بعدم زيارة إخوانهم فى غرناطة خوفا من اجتماعهم لاشعال الثورات ، ويعاقب من يخالف ذلك بالإحراق حيا ومصادرة ممتلكاته .

مرســوم خــاص بالكتب والمخطوطات :

ويلزم كــل مسلم منصر بتسليم ما لــديه من كتب بالعربية فى مدة لا تتجاوز خمسين يوما لفحصها وإحراق ما لــه أدنى صــلة بالإســلام منها ، ورد كتب الطب والفلسفة والعلوم الأخرى غير الدينية إلى أصحابها بعــد الحصول على ترخيص بذلك ، ومعاقبة من يخالف ذلك بمصــادرة ممتــلكاته .

ويلاحظ أن السلطات الأسبانية لم تكن تعيد أى كتب أو مخطوطات إلى أصحابها وخاصة بعــد قيام محاكم التحقيق (التفتيش) التى شــنت حملة شــعواء متعصبة على كل ما يتعلق بالإسلام والعروبة فى الأندلس بقصــد الإبادة والتدمير .

مرســوم خــاص ببيــع الممتلكات :

ويلزم أى مسلم منصر بعــدم بيع متلكاته إلى مسلم آخر إلا بعــد الحصول على إذن من الســلطات الأسبانية التى لم تكن تمنــح ذلك إلا فى القليل النادر وبعــد التأكد من إخلاص البائع للمسيحية بقصــد إجبارهم على بيعها للأسبان بأبخس الأثمــان ، ومن يخالف ذلك يعــاقب بالإحراق والمصادرة ، ثم صدر مرسوم آخر يمنعهم من بيع ممتلكاتهم نهائيا خشية الفرار بثمنها إلى بلاد المغرب كما فعل الكثيرون والعودة إلى الإسلام هنــاك(٥٦) .

---

(٥٦) الإسلام فى أسبانيا ص ١٧٥ ، مقدمــة المغازى الموريسكية ص ٢٤ ، مجــلة دراســات ص ٧٩ .

مرســـوم خـــاص بالميراث :

يمنع المسلمين المنصرين من توزيـــع مواريثهم حســـــب الشريعـــة الإسلامية ، وتوزيعها حسب الأعراف والقوانين الاسبانية ، ومعاقبـــة من يخالف ذلك بعقوبات صارمة كالسجن والمصادرة(٥٧) .

مرســوم خــاص بحيازة الأسـلحة :

يمنع المسلمون المنصرين من حمـــل أى نوع من السلاح إلا باذن من السلطات الاسبانية ـــ بينما ابيح ذلك للاسبان بحجـــة الدفاع عن أنفسهم وممتلكاتهم ضـــد اعتداءات المسلمين المنصرين بزعمهم ـــ(٥٨) ومن يخالف ذلك يعاقب بالنفى ومصادرة ممتلكاته ، وإذا فعـــل ذلك مرة أخرى حكم عليـــه بالإعـــدام .

مرســـوم خـــاص بمنع ممارسة الشعائر الإسلامية والالتحاق بالثوار :

وينص على ان كل مسلم منصر يضبط متلبسا بممارسة شعائر الإسلام فإنه يعاقب بأشـــد العقوبات التى تصل إلى المصادرة ، وكذلك إذا شارك فى إى ثورة او التحق بالثوار المعتصمين فى الجبال .

ومرســـوم خاص بمنـــع التعامل او التعـــاون مـــع مسلمى شمال افريقية ، ومن يخالف ذلك يعاقب بالإعـــدام ، ومرسوم خاص بالفـــارين

---

(٥٧) مجلة دراســـات ص ٧٩ ـــ ٨٠ .

(٥٨) هـــذا هو الأسلوب الذى تتبعه إسرائيل اليـــوم بالنسبة لسكان المستعمرات اليهود بحجـــة الدفاع عن انفسهم ضـــد الفلسطينيين وما يفعله الغرب المسيحى ضـــد المسلمين فى البوسنة والهرســـك وغيرها من الدول الإسلامية التى فرض عليها الحصار ، وتطبـــق عليها العقوبات الاقتصادية ، كالعراق وليبيا .

من غرناطة ينص على أن من يهرب من المسلمين المتنصرين يحرم من ممتلكاته وتصادر ، وإذا عاد إليها يقبض عليـه ويباع كالعبيد(٥٩) .

فى عهـد الملك شارل الأول (شـارلكان) :

توفى الملك فرناندو (فرديناند) الكاثوليكى فى ٢٣ يناير سنة ١٥١٦ بعـد أن أوصى لحفيده شـارل الأول بالعرش أثناء حكم ابنته خـوانا المعتوهة التى كانت مجرد أداة فى أيدى نوابها تكتفى بالتوقيع على المراسيم - تحت وصاية الكاردينال سيسنيروس - الذى استغل صغر سن الملك الجـديد لمتابعة مخططاته الانتقامية وممارسة سياساته القمعية ضـد المسلمين ، ومنها إلى جانب المراسيم والقوانين الجائرة تأسيس جمـاعات عسكرية منظمة استخدمها ضـد المسلمين فى اسبانيا وشمال افريقية . وحاول هـذا الكاردينال الاستبداد بالأمور من دون الملك شارل والتخلص منه لـولا أن كشف الأب دريانو (أستاذ الملك شارل) وغيره من العيـون والمنافسين مخططاته والاعيبه . ويقـال إنه استطاع التخلص منـه بعـد أن استدعاه إلى قصره سنة ١٥١٧ م(٦٠) . ورجا المسلمون بعد وفاة هذا الكاردينال المتعصب أن يكون العهـد الجـديد خيرا من سابقه . وقـد أبدى الملك شارك المعروف بالامبراطور شارلكان شيئا من اللين والتسامح فى أول الأمر نحـو المسلمين ، وخففت محاكم التفتيش شيئا من وسـائلها فى مطاردة المسلمين ، وتدخـل النبلاء والسـادة الذين كان المسـلمون يعمـلون فى ضـياعهم فى مملكة ارجـون لدى الملك للكف عن التعرض

---

(٥٩) المرجـع السـابق ص ٨٠ - ٨١ .
(٦٠) مجلة دراسـات ص ٧٧ - ٧٨ .

لهم(٦١) . ولكن ذلك لم يدم طسويلا حيث ما لبثت كلمة العناصر المتعصبة فى البلاط والكنيسة ان تغلبت فعادت المراسيم المتشددة من جـديد .

فأصدر الملك مرسوما جديدا فى سنة ١٥١٨م يقضى بمنع الموريسكين (المسلمين المنصريين) من لبس الثيـاب العربية ، ولكنهم لم يعبأوا بذلك فاضطر إلى اخـذهم بالشدة والقسوة ، كما صدر مرسوم آخر فى مارس سنة ١٥٢٤ م يحتم على كل مسلم بقى على دينه أن يتنصر وإلا تم إخراجه من آسبانيا ، ومن ابى ذلك فإنه يسترق مدى الحياة ، ويأمر بتحويل جميع المساجد الباقية إلى كنائس ، ثم اصـدر مرسوما آخر فى السنة التاليـة (١٥٢٥ م) يحرم على المسلمين المنصرين الخروج من أحيائهم التى يقيمون بها للسكنى فى غيرها ، ويحرم عليهم العمل فى أيام الاعياد ، ويحرم عليهم الآذان ، ويلزمهم بحمل علامات مميزة تدل عليهم كأن يضعوا فى قبعاتهم قطعة من القماش الازرق فى صـورة هلال ، وفرض عليهم التعميد فى اليـوم الثامن من شهر ديسمبر من تلك السنة ، وطلب من أهل بلنسية الخروج من اسبانيا فى نهاية هـذا الشهر نتيجة لثورتهم ، اما مسلموا الأمصار الاخرى فقد حـدد لهم اجلا للخروج فى يناير سنة ١٥٢٦ ، ولكنهم طلبوا منه أن يؤخرهم اربعين سنة(٦٢) . ولمـا انتهى الأجـل عقـد فى مجريط (مدريد) اجتماعا مـع كبار قادته ومستشاريه ورجال الكنيسة لبحـث مشكلة الموريسكيين على اثر استغاثتهم به وشكواهم إليه على يد وفـد منهم . وأسفر هـذا الاجتماع عن نتائج سيئة بالنسبة للموريسكيين فقـد حرم عليهم التحـدث بالعـربية ، واستخدام الحمامات ، وإقامة الحفلات

---

(٦١) عنـان : نهـاية الأندلس ص ٣٥١ .
(٦٢) الإسـلام فى اسـبانيا ص ١٧٥ – ١٧٦ .

وقرر أن التنصير الذى وقــع على المسلمين صحيح ولا تشوبه شــائبة لأنهم سارعوا بقبوله أتقــاء لمــا هو شر منه فكانوا بذلك أحرارا فى قبوله لم يرغمــوا على ذلك ، يا العجب ! ولذلك يعلق بعض المؤرخين المسيحين فى سخرية بالغــة فيقول « وهكذا أعتبر التنصير الذى فرضــه القوى على الضعيف والغالب على المغــلوب والسيد على العبــد منشئا لصفة لا يمكن لإرادة معارضــة أن تزيلها » .

وعلى اثر ذلك اصــدر الملك أوامره بارغــــام المسلمين المتنصرين على البقاء فى اسبانيا باعتبارهم نصارى وتنصير أولادهم ، فإذا إرتدوا تقضى عليهم بالموت والمصادرة ؛ وبتحويل جميع المساجد المتبقية إلى كنائس على الفـــور(٦٣) .

وكان لهــذا كله وقعه السىء على المسلمين ممـا أدى إلى ثورتهم فى معظم أنحاء اسبانيا فى البشرات وسرقسطة وبلنسية التى كانت تضم عــددا كبيرا من المسلمين يبلغ زهاء سبــعة وعشرين ألف إسرة ، وغيرها من المناطق واستطاع المسلمون أن يلحقوا بالجيش الاسبانى هزائم كثيرة إلا انه فى النهاية تم القضاء على هــذه الثورات بشتى أساليب البطش والتنكيل بواسطة القائد الاسبانى دون خوان دى أوستريا(٦٤) .

وبرغم تدخــل الكثير من الأشراف والنبلاء الأسبان الذين خشــوا على مصالحهم وضياعهم ومزارعهم من الخراب حيث كان كثير من المسلمين يعملون إلا أن مساعيهم ذهبت هبــاء لدى الملك الذى أصر نتيجة لتدخــل

---

(٦٣) عنــان : نهــاية الأندلس ص ٣٥٢ .
(٦٤) الإســلام فى اســبانيا ص ١٧٦ .

رجال الكنيسة المتعصبين على تطبيق المراسيم واصدر اوامره إلى ديوان التحقيق لتنفيذ ذلك(٦٥) .

كانت السلطات الاسبانية والكنيسة الكاثوليكية تنتظر بعد كل هذه المراسيم والاجراءات الصارمة ، ووسائل التعذيب والتنكيل التى اتبعها ديوان التحقيق أن يتحول المسلمون إلى مسيحين مخلصين ، ولكن أنى لهم ذلك فعملية التنصير كانت قسرية منذ البداية ، والعقائد لا تموت فى نفوس معتنقيها بسهولة خاصة إذا ما وقع عليهم الاضطهاد ، بل إن المخلصين لعقائدهم يزدادون بها تمسكا كلما زاد الاضطهاد عليهم(٦٦) .

ولذلك كان المسلمون رغم كل الوسائل المتبعة من قبل السلطات والكنيسة يمارسون شعائرهم الدينية سرا ، ويقيمون صلاتهم ، ويقومون بصنع الملابس التقليدية ، وينظمون حفلات مصارعة الثيران ، وبرع منهم الكثير فى ذلك ، ويمارسون فى الخفاء خلاف ما يظهرونه علانية ، ويعرف الواحد منهم باسمين اسم مسيحى بين الاسبان واسم إسلامى بين إخوانه . وبالرغم من أن الكنيسة كانت تفرض الغرامات الباهظة على كل من لا يحضر منهم للصلاة فى الكنيسة وقد تصل العقوبة إلى حد السجن إلا ان ذلك لم يرغمهم على دخول الكنائس إلا القليل منهم

(٦٥) نهاية الأندلس ص ٣٥٣ .

(٦٦) عن ديوان التحقيق أو محاكم التفتيش ودورها فى القضاء على المسلمين فى الأندلس انظر نهاية الأندلس ص ٣٢٨ وبعدها والأندلسيون المواركة ص ٢٣٢ وبعدها . د. على مظهر : محاكم التفتيش ، عنان : ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى .

من الضعفاء والفقراء ، ولذلك فإن الأسبان كانوا واهمين فى أعتناق الموريسكين للمسيحية فالجميع كان يعرف انهم نصروا ولم ينتصروا(٦٧) .

فى عهـد الملك فيليب الثـانى :

وقـد استمرت المراسـيم بعـد ذلك ولم تتوقف ففى اول يناير سنة ١٥٦٧ م اصـدر الملك فيليب الثانى مرسوما علق فى أعظم الميادين بالعاصمة مجـديط (مدريد) (ميدان البنود) والميادين الأخرى يقضى بمنع استخدام اللغـة العربية منعا باتا ، ويمهل الموريسكين ثلاث سنوات لإتقـان الاسبانية ، ومنعهم من استخدام الحمامات بسبب الاعتقاد بأنهم يكثرون من الاستحمام لأنه يغنيهم عن الوضـوء .

وفرض المرسوم وجود قابلة مسيحية عنـد ولادة اطفـال المسلمين المتصرين ، واجبرهم على فتح ابوابهم وعـدم غلقها حتى تستطيع عيون السلطات والكنيسة مراقبة ما يحـدث فى بيوتهم ، كما حظر عليهم ارتداء الملابس التقليدية والوقـوف باتجاه القبلة ، والزواج باكثر من واحـدة ، واستخدام الحناء ، ومنعهم من اتخاذ الكنائس كملاجىء لهم خلافا لغيرهم من المسيحين ، وان تجرى مراسم الزواج والولادة لديهم وفـق الطريقـة الاسبانية ، وكذلك مراسم الدفن بما فى ذلك الاعتراف الاخير الذى يسبق الوفـاة .

ولذلك كان المسلمون المتصرون يلجـأون إلى اخفاء أخبار مرضاهم حتى لا يحضر الكاهـن المسيحى فيدفـن المتوفى نصرانيا ، وإذا تزوج

---

(٦٧) نهاية الاندلس ص ٣٤٢ ، اندلسيات ص ١٥٧ — ١٥٨ .

احـدهم وفق الطريقة المسيحية فإنهم كانوا يقيمون لـه احتفـالا سريا لتزويجـه مرة أخرى على الطريقة الإسلامية ، وكانوا يستخدمون العربية فيما بينهم بعيدا عن عيـون ممثلى السلطة والكنيسة . غير أنهم بصدور هـذا المرسوم ـ الذى ينص على فتح ابوابهم وعـدم غلقها ـ اصبح من الصعب عليهم ان يستمروا فى إخفاء كل افعالهم وتحركاتهم عن أعـين السلطات التى زادت من تشديد المراقبة عليهم .

واصـبح الأمر ينـذر بالانفجـار بعـد أن فشلت كل محاولاتهم لاستصدار عفـو عام عنهم ، ورفع الرقابة الصادرة عليهم . وفى الخامس عشر من ابريل سنة ١٥٦٨ م أندلعت شرارة الثـورة الأندلسية الكبرى فى جبل البشرات ، واخذت تنتقل من مكان إلى آخر ، وظلت مشتعلة نحو ثلاث سنوات حتى قضى عليهـا تحـت شـعار دون خـوان (لا رحمة ولا هـوادة) فذبح الرجال والنساء والأطفال ، وتحـولت قرى البشرات إلى ما يشبه المسلخ البشرى ، وقـدر عـدد القتلى فيها بنحو عشرين ألفا عـدا من أسر أو نفى وكان مصير الكثيرين الإعـدام ، وكان القضاء على هـذه الثورة بمثابة حرب إبادة للبقية الباقية من المسلمين فى الأندلس حتى لا تقـوم لهم بعـدها قائمة(٦٨) .

ويعترف بعض المستشرقين والمؤرخـين المسيحين بهـذه القسـوة ويدينها فيقول لين بول : « ثم أخيرا إخضاع الموراكة ولكن على حساب أسبانيا المسيحية وسمعتها ومستقبلها » .

---

(٦٨) انظر : الاندلسـيون الموراكـة ص ١٤٧ ــ ١٦٥ ، أندلسيات ص ١٦٠ ــ ١٦١ .

ويقول المؤرخ الاسبانى بريسكوت : « وكانت غرناطة فى هـذه الفترة مسرحا للاعـدامات شبه اليومية بالخـدمة فى القواديس او الشنق او بنهاية أكثر ارهـابا عن طريق تقطيع اجسادهم بكماشات تحمى حتى يصيـر لونهـا كالجمر(٦٩) .

وفى الثالث والعشرين من يونيو سنة ١٥٦٩ م اصـدر فيليب الثانى مرسوما بنفى جميع سـكان غرناطة من المسلمين بنـاء على طلب دون خـوان رئيس المجلس العسكرى وبدرودى ديثـا رئيس المحكمة العليـا خـوفا من ثورتهم مرة اخرى ، وطلب من جميع الذكـور الذين تتراوح اعمـارهم بين العاشرة والستين التجمع فى الكنائس القريبة من بيوتهم ، وخشى المسلمون من ذلك ـ خاصة وقـد ذبح اكثر من مائة منهم قبـل ذلك فى سـجن المدينة ـ فذهب وفـد منهم لمقـابلة رئيس المجلس العسكرى فطمأنهم كذبا إلى أن الهـدف من ذلك هـو إحصاء عـددهم ، وحـذرهم من عاقبة التخلف ، ولم يجـد مسلمو غرناطة امامهم مفـرا من تنفيذ ذلك ـ رغم أن الشكوك كانت تسـاور الكثيرين منهم ـ خشية من العقوبات الصارمة فتجمعوا فى الكنائس ، واغلقت عليهم الأبواب تحت حراسة الجنود الاسـبان . وفى صبيحة اليـوم التـالى اخرجـوا فى صفوف طويلة وهم لا يدرون شيئا عمـا ينتظرهم ، وسيقوا إلى المستشفى الملكى حيث قام دون خـوان بالإشراف على فرزهم وتقسيمهم إلى مجموعات واستبعد منهم نحـو الفين من العلماء والمهرة من الصناع والزراع ، وحدد لكل مجموعة جهـة معينة تنفى إليهـا .

---

(٦٩) الأندلسيون المواركة ص ١٦٥ .

وتتفاوت التقديرات بالنسبة لعددهم وان كان بعضها يحددهم بنحو خمسة وثلاثين الفاً ، وتم تنفيذ أوامر الإبعاد والطرد بسرعة بالغة دون توفير أقل الضروريات لهم من طعام وماء حتى مات الكثير منهم قبل الوصول إلى المنفى ، فضلا عمن قتله الجنود . اما مصير الأطفال دون العاشرة ومصير النساء فلم يكن أحسن حالا . فقد انتزع الاطفال من احضان امهاتهم ، ووزعوا على الكنائس فى غرناطة وغيرها من المناطق حتى يتربوا فيها وينشأوا على النصرانية . ويبدو ان معظم النساء قد بقين فى غرناطة للخدمة فى بيوت الأسبان ، كما استرق عدد منهن ، والتحق عدد منهن بأزواجهن فى المنفى(٧٠) . ولم يقتنع فيليب الثانى بذلك الموسوم فاصدر مرسوما آخر فى سنة ١٥٧٠ م يقضى بترحيل جميع من بقى من المسلمين فى مملكة غرناطة بلا استثناء ومصادرة جميع ممتلكاتهم . ويصف لين بول ما آل اليه حال المسلمين بعد الثورة الاندلسية الكبرى فيقول : « كان السبى والنفى المصير الذى آل إليه من بقى حيا بعد الثورة ، أولئك الذين أسروا اصبحوا عبيدا وسيق الباقون إلى المنفى تحت حراسة الجنود ، وكثير من المنفيين التعساء ماتوا فى الطريق ، وتمكن آخرون من الوصول إلى افريقية حيث عانوا من الفاقة ، ولم يجدوا أرضا يزرعونها ، وبعضهم وصل إلى فرنسا فقوبل بشعور شديد »(٧١) .

وفى سنة ١٥٧٢ م اصدر فيليب الثانى مرسوما جديدا للقضاء على اللغة العربية يحرم على المسلمين المتنصرين التخاطب بالعربية

---

(٧٠) الاندلسيون المواركة ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(٧١) نقلا عن المرجع السابق ص ١٦٨ .

او الكتابة بها ، وجعل عقــوبة من يخالف ذلك للمرة الأولى السجن مــع التكبيل بالحــديد لمدة ثلاثين يوما ، وضعف هــذه المدة لمن يخالف للمرة الثانية ، والخــدمة أربع سنوات فى القواديس مــع الجلد مائة جلــدة لمن يخالف للمرة الثالثة ، وجاء فى المرسوم أيضــا ان الذى يعثر عنده على وثيقــة او صفحات مكتــوبة بالعربية يعاقب بالخــدمة والجلــد ، والغى هــذا المرسوم اية صــفة قانونية او رسمية لأية وثيقــة او صك مكتوب بالعربية ، وجعــل عقوبة المسؤولين عن إصــدار هــذا الجلــد مائتى جلدة والخــدمة ست سنوات سخرة فى القواديس .

كما شدد هــذا المرسوم ايضا العقوبة على المسلمين الذين يتركون المناطق السكنية المحــددة لهم بعــد نفيهم فإذا قبض على واحــد منهم يتراوح عمره ما بين العــــاشرة والســـابعة عشرة على بعــد عشرة مراسخ(٧٢) من غرناطة ــ حوالى خمسة وخمسين ونصف كم ــ حكم عليه بان يكونه عبــدا يعمل فى القواديس طيلة حياته ، وإن كانت سنة اكثر من ذلك حكم عليــــه بالإعــدام ، واجبر المرسوم المسلمين المنصرين على إبلاغ السلطات إذا هرب واحــد منهم ، وإذا تخلفت اسرته عن الإبلاغ فإن جميع افرادها يعاقبون بالجلد والسجن لمدة شهر ، وكانت السلطات الاسبانية إذا هرب واحــد منهم خصصت الجــوائز القيمة لمن يدل عليهم او يمسك به ، كما كانت تسعى بكل طاقاتها لمنــع اختــــلاط المسلمين المنصرين فى غرناطة بإخوانهم فى اى مناطق اخرى خوفا من الثورة (٧٣) .

---

(٧٢) الفرسخ ٥٥٤١ م اى حوالى ٥½ كم ، والميل ١٧٤٨ م اى حوالى ١ ٣/٤ كم .

(٧٣) الأندلسيون المواركة ص ١٦٦ . القواديس : جمع قادوس وهــــو ما يستخدم فى مطاحن الغــلال ومعاصر الزيت .

نتائج وآثار هـذه المراسيم :

وقـد كان من نتائج تطبيق كل هـذه المراسيم الجائرة ــ بحـق المسلمين ــ بمختلف السبل والوسـائل ان تم تنصير اعـداد كثيرة منهم تحت وطـأة الاحكام الرهيبة التى كانت تقـوم بها السلطات ومحـاكم التفتيش ويشرف على تنفيذها رجال الكنيسة المتعصبون .

فكان المسلمون يضطرون إلى الدخول فى النصرانية ولو ظاهـرا للهرب من هـذا البطش والتنكيل ، ومن الويلات التى تنتظر كل متمسك بإسلامه ، وازدادت تبعا لذلك سرية ممارسة الشعائر الإسلامية أكثر وأكثر حتى غـدا الواحـد منهم يحـذر اشد الحـذر ويستخفى بعبادته حتى عن ابنائه الذين كانـوا يؤخـذون قسرا فيربون فى ظـل الكنيسة على المسيحية ، ثم يعـودون إلى اسرهم ليكونوا عيـونا عليها لصالح الكنيسة ومحاكم التفتيش التى كانت محارقهـا تلتهم الكثيرين منهم لاقـل الشبه والوشايات(٧٤) . كما كان من نتـائج هـذه المراسيم ايضـا أن تمت مصادرات واسعة للممتلكات الخاصـة بالمسلمين لصـالح الاسبان الذين استقدموا من مختلف أنحـاء شـبه الجزيرة الايبرية واسكنوا فى اماكن المسلمين ، ولصالح الكنائس والأديرة والكاتدرائيات .

كما نتج عنها ايضا تقلص الأزياء العربية ، وانتشار الأزياء الاسبانية بنهم وكانت محاكم التفتيش تجبر من يتهم بالهـرطقة الخفيفة على ارتداء ثوب اصفر طول النهار ــ اطلق عليه ثوب العار ــ عددا من السنين(٧٥) . وازدادت الزيجات بينهم وبين الأسبان على الطريقة المسيحية وإن حاول البعض إعادة زواجـه سرا على الطريقة الإسلامية .

---

(٧٤) اوراق اندلسية ص ١٥٣ ، الأندلسيون المواركة ص ٢٣٢ وما بعدها.
(٧٥) الاندلسيون المواركة ص ٢٣٣ هامش ١ .

وكان لكثرة الزواج بين المدجنين والموريسكين وبين النصارى آثارها الخطيرة من الناحية الاجتماعية . حيث أدت إلى نشأة جيل جديد مولد من أمهات مسيحيات أو آباء مسيحيين فقد عصبيته العربية والإسلامية ونشأ على المسيحية والتقاليد الأسبانية(٧٦) .

كما أدت هذه المراسيم إلى مزيد من ضعف المسلمين نتيجة حظر السلاح عليهم – كما تفعل دول أوربا وأمريكا اليوم بالنسبة لمسلمى البوسنة وغيرها – مما أدى إلى عدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم فضلا عن الثورة ، وإن ظل بعضهم يحتفظ ببعض الأسلحة لديه بسرية تامة ، كما ألغى نظام الميراث الإسلامى ولم يعد معمولا به وحل محله النظام الأسبانى ، وبدأت اللغة العربية فى الاضمحلال وحلت محلها اللغة القشتالية مما أدى بالموريسكين إلى استخدام لغة خاصة بهم تسمى (الخميادو) وهى كتابة اللغة الرومانية القشتالية بحروف عربية وهى تحريف أسبانى لكلمة الأعجمية **Aljamiads** وظلوا يستعملونها حتى تم طردهم من اسبانيا نهائيا وقد عثر بعض العلماء الأسبان على مجموعة من مخطوطاتها فى أوائل القرن الماضى(٧٧) .

---

(٧٦) عنان : نهاية الأندلس ١٩٩ ، ملحمة المغازى الموريسكية ص ٢٥ .
(٧٧) الإسلام فى أسبانيا ص ١٧٣ ، د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٥٣٣ البتنونى : رحلة الأندلس ص ١٤٠ ، عنان : نهاية الأندلس ص ٤٩٥ ، اندلسيات ص ١٦٢ ، ليفى بروفنسال : أدب الأندلس وتاريخها ص ٦٣ – ٦٤ .
وقد عثرت السلطات الأسبانية على مخطوط بهذه اللغة فيه فقرات بالعربية تتضمن خطبا وأناشيد دينية وقصصا ومواعظ كانت مخبأة فى تجويف إحد جدران بلدة أجريدا وهى محفوظة الآن بمكتبة الاسكوريال برقم ١٨٨٠ (الأندلسيون المواركة ص ١٧٦ هامش ١) ، ملحمة المغازى الموريسكية ص ٤٣ .

ويصف المؤرخ الأسبانى بريسكوت هـــذه المراسيم الجائرة التى صـــدرت بحـق المسلمين المنصرين فى هـذه الفترة القاسـية فيقـول « من العسير أن يعثر المرء فى صفحات التاريخ على مثال أوضح للاضطهاد تعرض لـه شعب مقهـور من ذلك المتمثل فى القوانين التى صـــدرت فى تلك الحقبة بحـق الموريسكيين »(٧٨) .

طرد المسلمين من اسبانيا نهائيا فى عهـد فيليب الثالث :

تصور كثير من الأسبان ان نفى الأندلسيين المنصرين سيكون انتصارا عظيما يعيـد لهم الشعور بالعظمة والفخـر ويرفـع من معنوياتهم التى تأثرت كثيرا للهزائم التى منيت بهـا أسبانيا (قشتالة) فى حروبهـا الاوربية ، ونتيجـة للكثير من الأزمـات السياسية والاقتصادية شـبه المسـتمرة(٧٩) .

وعلى الرغم من كل تلك المراسيم التى صـدرت منذ عهـد فرديناند وايزابيلا وحتى عهـد فيليب الثانى إلا أنه لم يتقرر طرد الأندلسيين جميعا من اسبانيا إلا فى عهـد فيليب الثالث فى سنة ١٦٠٩ م بعـد أن أشـار عليـه بذلك دوق دى ليرما رئيس الحـكومة والقس خـوان دى ربيرا الكاثوليكيين المتعصبين ، حيث زينـا لـه أن وحـدة اسبانيا الدينية والسياسية لن تتم إلا بطرد هؤلاء الأندلسيين من اسبانيا نهائيا لأنهم مهمـا اظهروا المسيحية ، وذهبوا إلى الكنائس فإنهم لن يخلصوا لهـا وسيظلون شـوكة فى ظهر أسبانيا ، واستجاب ذلك الملك الضعيف لهمـا ، وآثر

---

(٧٨) نقـلا عن الأندلسين المواركة ص ١٦٧ .

(٧٩) الأندلسيون الموراكة ص ١٨١ .

التضحية بمن بقى من الموريسكيين الذين كانوا يمدون البلاد بمدد لا ينقطع فى شتى المجالات . وأيده فى ذلك الغالبيــــة من الأسبان المتصبين ، وإن ارتفعت أصـــوات من بين الأسبان وخاصة من فئـــة الأشراف والنبلاء تعـــارض ذلك ، وتنتقـــد هـــذا المرســـوم (مرســـوم النفى الجماعى) والاجراءات التى اتخـــذت لتنفيذه ، وتدين القسوه البالغـــة التى ترد إيماد شـــعب باكمله عن موطنه الذى عاش فيه قرونا عـــدة(٨٠) .

وتقرر إن تبدا الحكومة بنـــفى اندلسين مملكة بلنسية حيث كانوا يشكلون تجمعـــا كبيرا لان رئيس أساقفتها كان خـــوآن دى ريبرا المتعصب الذى لقب (بمضطهد الموراكة)(٨١) . وبدا تنفيذ مرسوم النفى بالرغـــم من تدخـــل بعض النبلاء مثل دوق غندة Clanda وغيره لدى الملك لترك البعض للعمل فى المزارع والضياع . وبعـــد مداولات طويلة سمح لستة فى المـــائة فقط بالبقاء خشية على مصالح النبلاء والكنيسة التى كان لهـــا مزارع وحقـــول يعمل بهـــا الأندلسيون ، ونصت الاستثناءات على أن يكون الباقون من الذين لم يعـــرف عنهم ممارسة اية شـــعائر او عادات إسلامية او عربية خـــلال السنتين المـــاضيتين ، وجميع الأطفال الذين لم يتجاوزا الرابعـــة من عمـــرهم ، وكذلك من هم دون السادسة وكان أبوهم مسيحيا اسبانيا والسماح لأمهاتهم بالبقاء ، أما إذا كان والدهم اندلسيا فإنهم يرحلون معه إلا إذا كانت أمهم مسيحية اسبانية اصـــيلة فيمكنهم البقاء معها دون والدهم . وكانت عقـــوبة مخالفة ذلك العمـــل فى القواديس لمدة ست سنوات سخرة(٨٢) .

---

(٨٠) الإســـلام فى اسبانيا ص ١٧٦ . ملحمة المغازى الموريسكية ص ٣٦
(٨١) الأندلسيون المواركة ص ١٨٤ .
(٨٢) الاندلسيون المواركة ص ١٨٥ .

وأخـذت السفن الاسبانية فى نقـل المنفيين إلى الساحل المغربى على دفعات من بلنسية وقطالونيا ، ومرسـية ، وقشتالة ، وغرناطـة وغـيرها .

واستمرت عمليـة الطرد والإبعاد نحـو ست سنوات ، استطاع خلالها بعض الأندلسيين المواركة الفرار والالتجاء إلى الجبال حتى لا يتم إخراجهم . غير أن الجنود الاسبان قاموا بمطاردة هؤلاء مطاردات عنيفـة ادت إلى قتل الكثير من الرجال والنساء والأطفال وسبى الكثيرين أيضا . وتذكر بعض المصادر أن هـؤلاء كانوا ما بين ١٥ — ٢٠ الف ...(٨٣) كان نفى الأندلسيين المواركة عملية شاقة وعسيرة لم تنته إلا فى سنة ١٦١٥ م ولا يعرف على وجـه الدقة عـدد المنفيين او الباقيين . فالبعض يقـدره بتسعمائة ألف وهو عـدد ضئيل والبعض يقـدر بالملايين . ويذكر لين بول أنهم حـوالى نصف مليون وهناك تقـديرات أخرى تتراوح ما بين المليـون والثلاثة ملايين والخمسة ملايين(٨٤) . غير أنه من الصعب التيقـن من العـدد الدقيق نظرا لعـدم توفر الإحصاءات الدقيقـة عن هـذه الفترة الحرجة والقاسية فى تاريخ المسلمين بالأندلس والتى كانت السلطات والحكومة الاسبانية تحاول إخفاء ما يحـدث فيها ولا تظهره .

وقـد قـدر (لين بول) عـدد الأندلسيين الذين غادروا الأندلس بحـوالى ثلاثة ملايين مسلم فى الفترة ما بين سـقوط غرناطة وحتى رحيل اخر فـوج من المنفيين من الأندلس سنة ١٦١٥ م(٨٥) .

---

(٨٣) المرجـع السـابق ص ١٨٦ .
(٨٤) د. أحمد هيكل : تاريخ الأدب الأندلسى ص ١٢ د. أحمد شلبى : التاريخ الإسلامى حـ ٤ ص ٨١ ، عنان : اندلسيات ص ١٥٦ ، نهاية الاندلس ص ٤٠٢ ، ملحمة المغازى الموريسكية ص ٣٧ — ٣٨ .
(٨٥) الأندلسيون المواركة ص ١٩٠ .

وقد خسرت اسبانيا بسبب التعصب وضيق الأفق معظم هؤلاء الذين رحل معظمهم إلى بلاد المغرب فشاركوا فى بناء نهضتها وحضارتها بفضل خبراتهم وقدراتهم الفنية والعلمية .

ويصور المقرى بعض ما حدث للمسلمين فى هذه الحقبة المريرة فيقول « ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى فى البحث حتى انهم احرقوا كثيرا منهم بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحديد ، وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا ، ولم يقيض الله لهم ناصرا ، إلى أن كان إخراج النصارى لهم بهذا العصر القريب اعوام سبعة عشر والف (سنة ١٠١٧ هـ) فخرجت الوف بفاس والوف اخرى بتلمسان من وهران وجمهورهم خرج بتونس »(٨٦) .

لم يكن هذا النفى الجماعى نهاية الصلة بين الأندلسيين وبين اسبانيا فقد حاولت جماعات منهم العودة سرا ، وربما تمكن البعض من الوصول واستطاع الاختفاء بين السكان خاصة وان اشكالهم وملامحهم لم تكن تختلف كثيرا عنهم ، كما تشكلت منهم مجموعات خاصة اخذت تشن هجماتها على السفن والموانىء الأسبانية(٨٧) .

---

(٨٦) نفح الطيب جـ ٤ ص ٥٢٧ — ٥٢٨ .

(٨٧) بدأت الغارات البحرية على الشواطىء الأسبانية عقب استيلاء الأسبان على غرناطة وإكراههم المسلمين على التنصر حيث غادر الأندلس آلاف من المسلمين المجاهدين إلى المغرب ، واستقروا فى بعض القواعد الساحلية مثل وهران وبجاية ، ووهبوا حياتهم للجهاد ضد الأسبان . .

وإذا كانت اسبانيا المسيحية قد حاولت جاهدة بشتى الطرق والأساليب تنصير المدجنين واخفقت فى ذلك كثيرا فإن عملية الطرد أو النفى هذه قد أعادت إلى حظيرة الإسلام والعروبة ما يزيد على نصف مليون مسلم ظلوا قابضين على دينهم كالجمر .

أما من بقى فى أسبانيا من الموريسكيين فقد انتهى الأمر بهم إلى التلاشى والذوبان والانصهار فى المجتمع الاسبانى المسيحى على مدى القرون اللاحقة ، وتحول الكثيرون منهم إلى رقيق يعملون فى الخدمة حتى قدر البعض عدد الذين استعبدوا منهم بأكثر من ٥٠ ألف شخص ، ويذكر الرحالة الفرنسى (برونيل) الذى زار أسبانيا فى سنة ١٦٥٥ م أن المتجول فى اندلوثيا (الأندلس الصغرى) يكاد لا رى قدما إلا من العبيد معظمهم من الأندلسيين السود .

ومن المنطقى أن يكون هناك الكثير منهم فى المستعمرات الاسبانية الجديدة فيما وراء البحار فقد ذكر (بارى) أن الخوف من محاكم التفتيش قد دفع الكثيرين من الأندلسيين الموريسكيين واليهود ليكونوا من أوائل المهاجرين إلى أمريكا ، هذا بالإضافة إلى الهدايا من الجوارى

وقد ازدادت هذه الغارات ضراوة بانضمام بعض البحارة الأتراك وعلى رأسهم الأخوان الشهيران عروج وخير الدين اللذان يعرفان فى الروايات الأوربية باسم باربا روسا أو ذو اللحية الحمراء . وقد نشر فى الجزائر سنة ١٩٣٤ م كتاب معرب عن أصل تركى بعنوان (غزوات عروج وخير الدين) يوضح ما قام به هذان الأخوان من غارات على الشواطىء الأسبانية (انظر عنان : نهاية الأندلس ص ٣٨٤ — ٣٨٥) .

والعبيد التى كانت تتسدم الملوك والبابوات للعمل كحراس او خسدم أو وصيفات او مغنيات إلى غير ذلك من مهن كان يجيدها هؤلاء(٨٨) .

كان من المتوقع بعد أن طردت أسبانيا جل المسلمين فيها أن تسدل الستار على هذه المأساة الدامية فتترك هؤلاء الذين بقوا فيها يعيشون بسلام إلا انها استمرت فى مسلسل الاضطهاد حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وكانت المنازعات والصراعات شبه المستمرة بينها وبين بلاد المغرب من الأسباب التى أدت إلى ذلك .

وهكذا رحل المسلمون عن أسبانيا نهائيا ولكن آثارهم التى تركوها خلال ثمانية قرون لا تزال شاهدة على عظمة الإسلام وحضارته إلى اليوم بعد أن عادت اسبانيا إلى حظيرة المسيحية مرة أخرى .

---

(٨٨) الأندلسيون المواركة ص ١٩٢ — ١٩٣ ، ملحمة المغازى الموريسكية ص ٣٢ — ٣٣ . وقد عثر بعض الباحثين فى الأرشيف الوطنى لمكسيك على وثيقة من وثائق محاكم تعود لعام ١٥٨٤ م وفيها بيان من الكنيسة الكاثوليكية جاء فيه : « عليكم الإبلاغ عمن تعرفون من أشخاص ، أو تسمعون عنهم ممن يقول إن طائفة محمد أخيار ، وأنهم هم الذين سيدخلون الجنة ، وأن المسيح عيسى ليس هو الله بل نبيه ، وأنه لم تلده سيدتنا وهى عذراء ، أو قاموا ببعض شعائر طائفة محمد ، أو راعوها فى حياتهم كاتخاذ الجمعة يوم عيد ، وأكل اللحم خلاله او خلال الأيام الأخرى التى تحرم فيها الكنيسة اكل اللحوم ، أو ممن يقومون بذبح الطيور والحيوانات قائلين باسم الله ، أو ممن يختنون ابناءهم ويطلقون عليهم الأسماء العربية الإسلامية ، أو ممن ينطقون بعبارة لا إله إلا الله محمد رسول الله . . . الخ » .

(انظر ملحمة المغازى الموريسكية ص ٣٣— ٣٤) .

أثر المدجنين فى الأندلس (اسبانيا)

ظل تراث الإسلام وحضارته باقيين فى اسبانيا عن طريق هؤلاء المسلمين المدجنين لم يمحه تعاقب الأجيال ولا مرور السنين حتى وقتنا الحاضر .

وأول ما يلاحظ من آثار للمدجنين فى الحياة الأسبانية أثرهم فى الفن والعمارة . ولقد درج الباحثون على التفريق بين الفن المعمارى للمستعربين وهو الذى ولد فى البيئة الإسلامية وتأثر بها ، وبين فن المدجنين الذى هو من صنع المسلمين فى البيئة المسيحية . وقد كان ملوك اسبانيا من المسيحيين يدركون مبلغ براعة الصناع والبنائين والمسلمين فكانوا يستخدمونهم فى بناء الكنائس والقصور وغيرها من المبانى ، فعندما أراد الفونسو الثالث تحصين مدينة (ساموره) طلب عرفاء أهل طليطلة المسلمين لذلك ، كما استعان فرناندو الأول بأهل ليجو فى إعادة بناء الكنائس التى دمرت فى اثناء غزوات المنصور ابن أبى عامر .

وبعد سقوط قرطبة فى أيدى الاسبان سنة ١٢٣٦ م لم تجد السلطات الحاكمة سوى المدجنين لكى تعهد إليهم بالأعمال المعمارية والفنية ، فكان منهم النجارون والبناءون وغيرهم من أرباب الحرف الأخرى الذين يعملون فى الكاتدرائية الكبرى بها مرتين فى العام . ويذكر أن الملك (الفونسو الحكيم) اصدر منشورا سنة ١٢٨٠ م اشاد فيه باعمالهم وتعهد فيه بالا يتعرض لهم أحد بأذى(٨٩) .

---

(٨٩) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ١٦٦ — ١٦٧ .
د. صلاح فضل : ملحمة المغازى الموريسكية ص ٣٥ — ٣٦ .

وإلى العرفاء من المدجنين ترجــع بعض الآثار المسيحية ذات الطابع العربى مثل عقــد دير ساهاجون ، والعقــد الذى فى مصلى سان بدرو ، والعناصر المعمارية فى كنيسة سانتيا جــودل آرابال(٩٠) .

وهناك عــدد كبير من الكنائس فى ليون وقشتالة وقطالونيا تحتوى على الكثير من التفاصيل المعمارية الموجودة فى جامع قرطبة ، وتتضــح العمارة الدجنية بصــفة خاصــة فى الأندلس الصــغرى (غرناطــة) أو أندلوثيا الآن ، وفى مناطق الساحل الشرقى وفى طليطلة التى تشتمل على كثير من الأبنية المشيدة على هــذا الطراز المدجن مثل مسجد المدجنين فيها الــذى أنشىء سنة ١٣٢٦ م وكنيسة القــديس ســان خــوان . وفى طيرويل (تيرويل) التى تحمل كثيراً من ملامح هذا الفن فى أبراجها وكنائسها مثل برج سان بدور(٩١) .

بل بلغ من شغف هــؤلاء الملوك المسيحيين لهــذا الطراز أنهم كانوا يتركون قصــورهم المشيدة على الطراز القــوطى أو الرومانى أو غيرهما ليعيشـوا فى أبنية على الطراز المدجــن حتى أنهم أدخلوه فى مقابرهم . بل إن اشــد المتعصبين الأسبان الذين حملوا راية اضطهاد الأندلسيين المسلمين لم يجــدوا غضاضة فى الاستفادة من فنــونهم وخبراتهم ومنهم الكاردينارل زمنيز الذى يقول : « إنهم يفتقدون إلى دنينا ونحن نفتقــد إلى فنــونهم »(٩٢) .

---

(٩٠) د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ١١٠ .

(٩١) عادل بشتاوى : الاندلسيون المواركة ص ٢٨٩ . د. سيد سالم : مسجد المدجنين فى طيطلة ص ٧٨ وبعــدها .
الورفلى : أوراق أندلسية ص ٦٥ — ٦٦ .

(٩٢) الأندلسيون المواركة ص ٢٩٠ ، ملحمة المغازى المويسكية ص ٣٩ .

وإلى جانب هــذا الأثر المعمــارى والفنى الذى تركه المدجنـــون فى اسبانيا فقـد كان لهم أثرهم البارز فى الحيـــاة الاقتصادية . حيث شكلوا عاملا مهمــا فى حياة أسبانيا واقتصادها القــومى ، وفى ازدهار زراعتها وتجارتها وصناعاتها . فقـد كانوا عنصرا نشطا دءوبا عمـل فى المجالات المختلفة . وقامت على أكتافه الحياة الاقتصادية ولذلك فإنه عندما اتخذ الأسبان قراراتهم بالتنصير والنفى فإن ذلك كان ضربة قاصمة وجهوها دون روية أو تبصر لاقتصادهم القومى باعتراف الكثير من كتابهم ومؤرخيهم الواقعـــيين وكثير من المستشرقين الموضـــوعيين(٩٣) حيث خربت الأراضى الزراعيـــة والضـــياع الكبيرة ، وكسدت التجارة ، وركدت الحـرف والصناعات ، وغاضت الفنــون البديعــة التى كانت لهـــؤلاء المسلمين المدجنين ، وتناقص عــدد السكان ممــا أدى إلى تضاؤل موارد الدولة حيث كان هؤلاء المدجنون من أوفر العناصر فى المجتمع تأدية للضرائب . وعم الفقر والخراب كثيرا من المدن ، وخيم على أسبانيا كلهــا جـــو من الركــود والاضمحلال(٩٤) .

لقـد كان هؤلاء المدجنون من أبرع العناصر وانشطها فى المجتمع الأندلسى (الأسبانى) وكانوا يتفوقون فى الكثير من العلوم والفنون والمهن فكان منهم الأطباء والمهندسين والبنائين وغيرهم ، ولهم الفضل فى إدخال الكثير من المحاصيل الزراعية إلى اسبانيا مثل القطـــن والقصب والأرز

---

٩٣) انظر عنان : نهاية الأندلس ص ٤١٢ وبعدها .

٩٤) عنان : المرجع السابق ص ٦٣ ، د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٥٣٤ .

والحرير والبرتقال والتين واللوز وغير ذلك ، كما برعوا في هندسة الري ولا زالت مشاريع الري التي انشأوها – ولا سيما في المناطق الشرقية والشمالية الشرقية من أسبانيا – تشهد ببراعتهم وعبقريتهم في هذا المجال . وإليهم يعود الفضل في تطوير الكثير من الصناعات التي كانت دول أوربا تحذو حذوها(٩٥) .

لقد كان المدجنون عنصرا مهما في المجتمع الاسباني حيث اعتمد عليهم الاسبان وخاصة الأشراف والنبلاء بل وحتى بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية في إقطاعاتهم وأراضيهم بل لا نبالغ إذا قلنا وفي شتى مناحي الحياة العملية . ولقد وصف احد الرحالة الفرنسيين الاسبان في القرن السادس عشر بقوله (إن أذهانهم مملوءة بأحلام العظمة وهم يفضلون البؤس او خدمة احد النبلاء على الاشتغال في بعض الحرف والصناعات » ومن هنا شكل المدجنون عنصرا فاعلا وأقلية لها وزنها في المجتمع الأسباني . وخاصة في الناحية المعمارية والاقتصادية(٩٦) .

اما في الناحية الاجتماعية فقد كان هناك تأثير ايضا للمدجنين في المجتمع الاسباني حيث كانت الحضارة العربية هي المتفوقة في الأندلس ، ولذلك قلدها الكثيرون من الأسبان ملوكا وعامة في المأكل والملبس والعملة والسلاح والموسيقى والغناء والرقص والمبارزة بالسيف واللعب بالعصى إلى غير ذلك ، فقد كان الملك القشتالي إنريكو الرابع (١٤٥٤ – ١٤٧٤ م) يرتدي الملابس الأندلسية المزركشة مثل ملوك

(٩٥) الأندلسيون المواركة ص ٢٥٤ ، ملحمة المغازي الموريسكية ص ٣٥ – ٣٦ .

(٩٦) عنان : نهاية الأندلس ص ٤١٣ .

الشمال المسيحيين ، واحتفظ بحرس ملكى اندلسى فى بلاطه ، كما أن الملك بيدرو الثانى (دون بطرة ١٣٥٠ — ١٣٦٨ م) اتخذ له حرسا من المدجنين . كمـــا أن الملك الأرغونى الفونسو الخامس (١٤١٦ — ١٤٥٨ م) كان يصطحب معـــه فى رحلاته إلى إيطـــاليا بعض المغنين والراقصين من الاندلسيين . وقد تأثر الكثيرون من الأسبان بالعادات والتقاليد الاندلسية فكانوا يختنون أولادهم ويتخـــذون الجوارى ، كما انتشرت عـــادة ارتداء الحجاب بين الكثير من الأسبانيات إلى حـــد جعل الملك فيليب الثانى يطلب إلى مجلس قشتالة التصرف فى هـــذا الأمر بغية منعـــه . وأصـــدر سنة ١٥٩٠ م أمرا بمنع الحجاب وقرر عقـــوبات شـــديدة لمن يخالف ذلك ولكن دون جـــدوى .

وجاء فيليب الرابع فأصـــدر سنة ١٦٣٩ م مرسوما بحظره ولكنـــه لم يحقق نجاحا يذكر أيضا ممـــا اضطر بعض الكتاب الأسبان إلى وضـــع رســـائل وكتب سعيا وراء إزالة هـــذا الأثر الأندلسى ومن هذه الرسائل رسالة (الحجاب : قـــديمه وجـــديده على وجـــوه النســـــاء حشـــمته وخطـــره)(٩٦) .

لقـــد ضرب المدجنون بسهم وافر فى الحيـــاة العامة وفى أوجـــه النشاط المختلفة ، وكان ما اتسموا به من صبر وجلد ونشاط مثارا لإعجاب معظم الأسبان ، كما كانت سجاياهم التى ورثوها عن آبائهم واجدادهم درعا واقيـــا لهم من الفساد والانحلال الذى تردت فيـــــه بعض الطـــوائف فى المجتمع الأسبانى .

---

(٩٦) د. احمد بدر : دراسات فى تاريخ الأندلس وحضارتها ص ٢٠٠ — ٢٠٧ ، الأندلسيون المواركة ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .
عنان : أندلسيات ص ١٧٧ ، نهاية الأندلس ص ١٧٣ .

ولقد انتقلت منهم معانى الحسب والبطولة والكرم وغيرها من الصفات إلى الأسبان وفاض الأدب الأسبانى بالكثير من صور الغيرة وألوان الحب قبل القرن السادس عشر ، كما استهوت نساؤهم شعراء (التروبادور) فتغنوا فى اشعارهم بأسماء عربية مثل فاطمة وعائشة وثريا ، ونظموا فيون القصائد والمقطعات الغزلية مثل الشاعر غرسية فرنندث دى خريتا الذى احب مغنية عربية وتعلق بها وهرب معها إلى غرناطة وأسلم .

كما كان للنساء المدجنات اثرهن فى المجتمع الأسبانى وقد رسم كتاب (الأرثبرت دى هيتا) صورة أخاذة للقوم وهم يغنون ويرقصون فى احتشام وحياء ولا يتحدثون إلا بالعربية(٩٧) .

غير ان بمضى الزمن اخذت العوامل الاجتماعية تحدث اثرها بين المدجنين فبالرغم من الفوارق التى كانت تفصل بينهم وبين النصارى ، إلا أن وجودهم معهم فى مجتمع واحد أدى بهم إلى الاختلاط والتزاوج منهم والتشبه بهم فى بعض الأحيان مما ساعد على اندماجهم شيئا فشيئا فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، وفقدهم للكثير من ميزاتهم الجنسية والقومية واللغوية حيث أخذ الكثير منهم يتعلم القشتالية ويكتب بها إلى جانب العربية(٩٨) .

أما عن الأثر الثقافى للمدجنين فكان كبيرا ، وكما احتفظ المدجنون بتراثهم الفنى فإنهم قد احتفظوا بتراثهم العلمى والأدبى زمنا طويلا وحافظوا على عروبتهم وتقاليدهم حتى بعد أن فرض عليهم التنصير .

---

(٩٧) الإسلام فى اسبانيا ص ١٦٩ — ١٧٠ ، ملحمة المغازى ص ٧٨ .

(٩٨) عنان نهاية الأندلس ص ٦٦ .

وتاريخ طليطلة وغيرها من المدن التى عاش فيها المدجنون تحت حكم الأسبان خير شاهد على ذلك بالرغم من موجات الاضطهاد ، فقد ظلت هذه المدينة بعد سقوطها فى يد ألفونسو السادس سنة ١٠٨٥ م محتفظة بطابعها العربى قرونا طويلة وبرز من بين أهلها من المسلمين المدجنين الكثيرون فى مجالات شتى رغم ما أحاط بهم من ظروف قاسية . بل إن ألفونسو السادس تأثر بالثقافة العربية عن طريق الحاشية التى اتخذها من المدجنين فقد كان له كتاب منهم يحررون الرسائل بالعربية كما تشهد بذلك مكاتبات هذه الفترة(٩٩) .

ويمكن القول اعتمادا على الوثائق التى ظهرت أنه كان ثمة طوائف كبيرة من المدجنين ظلت حتى القرن الخامس عشر تحتفظ بدينها ولغتها وتقاليدها(١٠٠) .

وممن نبغوا من المدجنين فى هذه الفترة صادق بن خلف بن بلال ابن بيل الأنصارى الذى رحل إلى المشرق وحج ثم دخل بيت المقدس وسمع عن نصر بن إبراهيم المقدسى وكتب بخطه علما كثيرا وتوفى سنة ٤٧٠ هـ ، وأقام زمنا فى برغش ، ونشر كتبه فيها وكانت فى أيدى المسيحيين آنئذ . وهذا يدل على أنه كان فى بلاد قشتالة أناس يقبلون على الثقافة الإسلامية(١٠١) .

وقد ظلت الثقافة الإسلامية قائمة فى طليطلة طوال القرنين الحادى عشر والثانى عشر حتى أيام سان فرناندو وولده ، كما ظلت

---

(٩٩) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا ص ١٦٧ — ١٦٨ .
(١٠٠) عنان : نهاية الأندلس ص ٦٥ — ٦٦ .
(١٠١) الإسلام فى اسبانيا ص ١٦٨ .

مزدهرة بين المدجنين من أهــل إقليش ووادى الحجارة وطلبيرة إلى منتصف القــرن الســابع عشر .

كما كان للمدجنين اثر ثقافى فى مرسية حيث جمع ألفونسو الحكيم حــوله طائفة من العلماء المسلمين والمسيحين واليهود لترجمة الكتب العربية إلى الاسبانية أو النقل عنها كما ظهر ذلك فى المدونة العــامة لتــاريخ اسبانيا وقد نقل فيها عن البكرى وغيره من المؤلفين العرب .

ويعــد القرن الرابع عشر من القرون الخصبة فى حيــاة المدجنين الثقافيـــة والأدبية وتحتفظ مكتبة الأسكوريال بعــدد من المخطوطات التى كتبت فى طليطلة واشبلية وقرطبة ووادى الحجارة وغيرها يرجع اقــدمها إلى سنة ١٢٦٤ م واحــدثها إلى سنة ١٤٦٥ م ومعظمها فى الطــب والعلوم . ومن اهمهـــا كتابان احــدهما فى الطب بالعـــربية والآخر فى الرياضيات لأبى عبد الله محمد الرياضى ، وقــد خالف فيه بطليموس فى بعض نظرياته . وفى هـــذه الفترة نقــل دون خوان مانويل فى كتبه كثيرا من الأخبار الواردة فى الكتب العربية التى كانت موجودة فى مرسية واشبلية مثل كتاب المسهب للحجارى وكتاب المغرب لابن سعيد(١٠٢) .

وقـــد كان المدجنون يكتبون بالعربية وبالاسبانية (القشتالية) كذلك حيث تعلمها الكثيرون نتيجة اختلاطهم بالأسبان وتعاملهم معهم وتزاوجهم منهم كما قلنا ، ولهم آثار كتبت باللغة القشتالية بحروف عربية — بعــد أن صـــدر مرسوم سنة ١٥٦٦ م فى عهــد فيليب الثانى الذى يحــرم التحــدث بالعربية — وهى اللغـــة التى تسمى بالالخميادو (الأعجمية) والتى شـــاع اســتعمالها سرا بين الموريسكيين بعــد ذلك ومن هــذه

---

(١٠٢) الإسلام فى اســبانيا ص ١٧١ .

الآثار قصـة الاسكندر ، وقصيدة يوسـف ، والأنشودة التى رويت على لسان أبى عبد الله الغرناطى آخر ملوك بنى نصر وهو يبكى فيها غرناطة ونصها عربى مكتوب بحروف لاتينية(١٠٣) .

ومن مشاهير العلماء والأدباء المدجنين دون عيسى جابر الشقوبى وكان مفتيا وشيخا لجامع شقوبية وهـو مصنف مختصر السنة ، ومحمـد الشرتوسى الذى ألف الموسوعة التى عرفت بقوانين المسلمين وكان مدجنا من وادى الحجارة وعمـل طبيبـا لدون دييجـو فرنادو دى مندوثا زعيم قشتالة ، ومن أشهر شعرائهم محمد ربدان الذى كان حيا فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى وهـو من إقليم اراجـون ولـه نظم كثير وقصائد قصصية وأخرى دينيـة ، وإبراهيم دى بلفاد وله مسرحية شـعرية عن معجزات الرسول ، وأشعار دينية . والواقع أن كتابة المدائح النبوية باللغة القشتالية ترجع إلى عصر مبكر فقـد كتبها المدجنون بهـذه اللغـة منذ القـرن الثـالث عشر وانتشرت بعـد ذلك بينهم فى مختلف مدن قشتالة وأراجون . ثم كتبها الموريسكيون بالألخميادو اى القشتالية العربية(١٠٤) كل هـذه المظاهر وأمثالها يؤكد الأثر الذى تركه المدجنون فى الحيـاة الأسبانية فى نواحى شتى .

---

(١٠٣) أنظر عنان : نهاية الأندلس ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥ . ظلت هـذه اللغة سرا دفينا بعـد نفى الموريسكيين من أسبانيا سنة ١٦٠٩ م حتى عثر بعض العلماء الأسبان على مجموعة من مخطوطاتها فى أوائل القرن المـاضى ويقول عنها المستشرق الأسبانى مندنيث دى بلايو (إنها هى اللغة الرومانية القشتالية تكتب بحروف عربية) ، وكان من أوائل الدارسين لهـا المستشرق الأسبانى سافدرا (عنان : نهاية الأندلس ص ٤٩٥ ، أندلسيات ص ١٦٢ ، ملحمـة المغـازى الموريسكية ص ٤٩ .

(١٠٤) محمد عنان : أندلسيات ص ١٦٣ ، الإسلام فى اسبانيا ص ١٧٣ . ملحمة المغازى الموريسكية ص ٤٦ ـ ٥٠ .

ولقــد اعترف الكثير من المستشرقين الموضوعيين بفضــل المسلمين على اسبانيا بل وأوربا كلها ومنهم لين بول الذى يقول : « يجب الا يخطر ببال احــد أن العرب عاشوا فى البلاد (يقصــد أسبانيا) وخربوها بصنوف الارهاق والظلم كما فعل قطعان المتوحشين من قبلهم ، فإن أسبانيا لم تحكم فى عهــد من عهودها بسماحة وعــدل وحكمة كما حكمت فى عهد العرب الفاتحــين »(١٠٥) .

---

(١٠٥) العرب فى أسبانيا ص ٣٨ .

مصـــادر البحـــث ومراجعه

اولا - المصـــادر الأصليـــة :

١ - ابن الاثير : الكامل فى التـــاريخ ج ٤ - دار صـــــادر بيروت ســـنة ١٩٧٩ م .

٢ - ابن الخطيب : الإحاطة فى اخبار غرناطة - القـــاهرة ١٩٧٣ - ١٩٧٤ م .

٣ - ابن الخطيب : كناسة الدكان بعـــد أنتقــــال السكان - تحقيق د. محمد شبانة دار الكاتب العربى القاهرة د.ت .

٤ - الحميرى : الروض المعطـــار تحقيق د. إحسان عبـــاس بيروت سنة ١٩٧٥ م .

٥ - الخزرجى : بين الإسلام والمسيحية . تحقيق د. محمد شامة ط ٢ مكتبة وهبـــة القاهرة سنة ١٩٧٥ م .

٦ - ابن عـــذارى : البيان المغرب فى اخبـــار الأندلس والمغرب ج ٤ تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

٧ - ابن عـــذارى : ازهار الرياض فى اخبـــار عيـــاض القاهرة سنة ١٩٣٩ - ١٩٤٢ م .

٨ - مؤلف مجهول : نبدذة العصر فى أخبـــار ملوك بنى نصر . تحقيق الفريد بستانى . منشورات معهـــد فرانكو العرائش (المغرب) سنة ١٩٤٠ م .

٩ - المقرى التلمسانى : نفـــح الطيب فى غصـــن الأندلس الرطيب . المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠٢ هـ .

١٠ - ياقوت الحموى : معجم البلدان ، دار صادر بيروت سنة ١٩٧٩ .

ثانيا . — المراجع الحديثة :

١ — د. إبراهيم بيضون : الدولة العربية فى اسبانيا ط ٢ دار النهضة العربية سنة ١٩٨٠ ، بيروت .

٢ — د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى حـ ٤ ط ٦ مكتبة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٨٢ م .

٣ — د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ط ٣ القاهرة سنة ١٩٦٧ م .

٤ — جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربية ط ١ دار المعارف القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

٥ — د. سعيد عاشور وآخرون : دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ط ٧ منشورات دار السلاسل الكويت سنة ١٩٨٦ م .

٦ — د. صلاح فضل : ملحمة المغازى الموريسكية ط ١ سنة ١٩٨٩ دار المعارف القاهرة .

٧ — عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة — مطابع انترناسيونال القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

٨ — د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ط ١ دار الاعتصام القاهرة سنة ١٩٨٣ م .

٩ — عبد العاطى الورفلى : أوراق أندلسية : ط ١ منشورات جمعية الدعوة الإسلامية طرابلس ليبيا سنة ١٩٨٠ م .

١٠ — د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربى فى الأندلس . النهضة العربية بيروت سنة ١٩٧٦ م .

١١ — د. على مظهر : محاكم التفتيش ط ١ مطبعة أنصار السنة المحمدية القاهرة سنة ١٩٤٥ م .

١٢ — د. لطفى عبد البديع : الإســلام فى اسبانيا ط ٢ مكتبة النهضــة المصرية القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

١٣ — ليفى بروفنسال : ادب الأندلس وتاريخها . ترجمــة د. محمــد عبد الهادى شعيرة المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥١ م .

١٤ — لين بول : العرب فى اسبانيا ترجمــة على الجارم دار المعــارف بمصر سنة ١٩٤٩ م .

١٥ — محمد عبد الله عنــان : اندلسيات كتــاب العربى رقم ٢ الكويت سنة ١٩٨٨ م .

١٦ — محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ط ٤ مكتبة الخانجى القاهرة سنة ١٩٨٧ م .

١٧ — محمد لبيب البتنونى : رحــلة الأندلس — ط ١ مطبعــة كشكول بمصر سنة ١٩٢٧ م .

١٨ — د. محمــود المقــداد : تاريخ الدراسات العربية فى فرنســا — سلسلة عالم المعرفة رقم ١٦٧ الكويت سنة ١٩٩٢ .

ثالثا — الــدوريات :

١ — مجلة دراسات : تصــدر عن الجامعة الأردنية — العــدد الثانى المجلــد الثامن سنة ١٩٨١ م .

٢ — مجلة عالم الفكر : تصــدر عن وزارة الاعلام بالكويت العــدد الأول المجلد الثانى عشر سنة ١٩٨١ م ، والعــدد الثالث المجلد الخامس عشر سنة ١٩٨٤ م ، والعــدد الثانى المجلد السادس عشر سنة ١٩٨٥ م ، والعــدد الأول من المختار من عالم الفكر سنة ١٩٨٤ م .

الفهـــرس

رقم الإيداع بدار الكتب الوثائق القومية
١٩٩٣/٢٥٤٦
تحريرا فى ١٩٩٣/١٢/٣

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفون : ٥١٠٦٧٢٤